ANCORA IMPARO



# العصور

السنة الرابعة

مايو سنه ١٩٣٠ اعرف نفسك بنفسك ـ فيثاغورس العدد ٣٣ المجلد ٧

## العصور فى سنتها الرابعة

بهذا العدد تستقبل « العصور » سنتها الرابعة ، وقد سلخت من عمرها ثلاثة أعوام دأبت خلالها على بث الفكرة الأصلية التى من أجلها أنشأناها ، وجاهدنا فى سبيلها ، وضحينا ما ضحينا ، لتكون هذه الفكرة الأساسية طابع التفكير الحديث فى مصر الناهضة ، بل وفى « الشرق النائم » كما وصفه أحد الكتاب .

على أن الجهد الذى صرفناه ، والتعب الذى أنفقناه ، فى سبيل العصور ، ونشر فكرتها ، لم يضع هباء ، ولم يذهب سدى . فيكفى لدينا أن ينقل الينا صديق من أهل الرأى خبراً ، مؤداه أن فى بلاد فارس معركة فكرية ، تدور حول « العصور » وحول مبدئها الأساسى ، من حرية الفكر ، ونبذ التقاليد . يؤيدها فريق ويناوئها آخر ، على صفحات الجرائد الكبرى فى ذلك القطر الناهض .

هذه الحقيقة وحدها ، كافية لأن نوالى الجهد ، ونثابر على العمل ، ونزداد فى موقفنا ثباتاً ، وفى صحة مبدئنا عقيدة .

ولقد أردنا مع هذا أن تكون العصور فى متناول كل الطبقات التى يهمها ارتقاء العربية والشرق عامة . أما مبدؤنا فسيكون كما كان دائماً « حرر فكرك » ، ولا نظن أن فى متسطاع الشرق أن يرقى ، وأن يجارى سير الحضارة الحديثة ، من غير أن تتحرر أفكار أهله من التقاليد القديمة البالية ، لتحل محلها طريقة العلم الاستقرائى القائمة على حرية الفكر ، وهو التراث الأمجد الذى خرجت به الانسانية من عراكها الطويل خلال العصر الحيوانى .

# تأملات في الأدب والحياة

## غاندى الضئيل

فى كل يوم تقع عيناك على هياكل بشرية مركبة من دم ولحم وعظام . وفى كل يوم تتمخض البطون عن هياكل بشرية . وفى كل يوم تتفتح القبور لتضم أخرى . وغاندى الضئيل من حيث أنه هيكل بشرى لا يخرج عن حكم الطبيعة فى إبراز الهياكل البشرية إلى عالم الحياة ثم ضمها إلى عالم التراب . أما من حيث أنه « روح » فهو فى طبقة الأنبياء حكمة ، وفى منزلة الأبطال شجاعة ، وفى عالم الخالدين أثراً .

غاندى الضئيل ، الهيكل البشرى المركب من قليل من الدم ، ونزر بسيط من اللحم ، وكمية صغيرة من العظام ، يهز أعطاف الامبراطورية التى لاتغيب الشمس عن أملاكها . هذه الذرة البسيطة من الانسانية ، تهز جوانح أكبر امبراطورية عرفتها الانسانية . نعم تهزها من الأعماق وتوقفها موقف المكتوف المكبل بالأغلال أمام عصاة ينفخ غاندى ، العنيف الضعيف ، فى عصيانهم روح السلام .

عصيان مدنى ! يكفى فيه أن تقول لا أريد . ثم تثبت على ارادتك غير مهزوز أمام مدفع أو مهزوم أمام سنان . هى كلمة تعززها إرادة . شيئان أقوى من الأساطيل ، وأعنف من المدافع ، وأفعل من الحديد والنار .

حقا إن الشرق منبع الروحانيات . والظاهر أن هذا الشرق كما استقوى على العالم أجمع بروحانيته مصروفة الى الدين والاعتقاد ، سوف يستقوى عليه بروحانيته مصروفة إلى خير الانسانية .

ولعمرك ماذا يكون غاندى الضئيل اذا كان مجرد هيكل بشرى ، أو صورة مجسمة من دم ولحم وعظام ، ثم فقد قوة الروح ؟ إنه ولا شك يكون لا شىء . يكون كملايين الاشباح التى تمثل على مسرح هذه الحياة مهزلتها ، ثم تمر مر خطرات الوهم أو فلتات الخيال . ولكن هى الروح اذا تجردت عن التعلق بالماديات تسامت إلى أى شىء ؟ أخشى أن أقول إلى مقام الالوهية .

***

## أنا حر

للشاعر الآلهي « طاغور » رواية أسماها الناسك - The Ascetic - بدأها بهذه الجملة : « أنا حر » .

وهذه الجملة ، المكونة من مبتدأ وخبر ، أو من كلمتين اثنتين لا تتجاوز حروفهما الخمسة عداً ، تقوم عندي مقام مأساة كاملة . هل فى هذه الانسانية من يجد فى نفسه من الصفات ما يخول له أن يقول « أنا حر » ؟ هل فى مستطاع كائن بشرى بالغاً ما بلغ من الاستقلال فى الرأى أن يدعى أنه وصل الى هذا المقام الأسمى ، مقام حرية الضمير ، فيقول عن عقيدة « أنا حر » ؟ . . . ولكن طاغوراً قالها !! ولئن لم يكن من حق طاغور أن يقولها لأنه وصل إلى أعلى قنة من هـذا المقام الأسنى ، فانه ولا شك أجدر انسان بأن يقولها فى هذا الزمان .

اعتقد ان عظمة الامم ، بل عظمة الانسانية ، إنما تقوم على نفوس كبار تشعر بالحرية وتقدس ما فيها من معانى الجمال . وكلما كثر فى أمة أولئك الرجال الذين هم من هذا الطراز ، على تباين فى المنزلة والمرتبة ، كان مركزها من الحضارة أثبت وسناداتها الاجتماعية أقوى وأركز .

أنا حر ! ولكن فى أى شيء ؟ فى كل شيء . فى رأيى . فى عقيدتى . فى ضميرى . فى أخلاقى . فى تصرفى . فى قولى . فى عملى . . أنا حر فى كل شيء . ولكن عند الحد الذى أنفع فيه الانسانية . بل إنك اذا قلت « انى مقيد بجمال الحرية » — كنت كأنك تقول « أنا حر » . هذا ما يفهم من معنى كلمة طاغور الخالدة .

ولا يكفى أن تقول « أنا حر » لتكون حراً بالفعل . كما لا يكفى أن تقول أنا ملك ، لتكون ملكا . أو تقول أنا شيطان ، لتكون شيطاناً . بل يجب أن تكون حراً بالفعل ليكون من حقك أن تقول « أنا حر »

ومن أجل أن تبلغ إلى هذه الدرجة العليا يجب أن تعتقد أنك تحررت من السلطات بأنواعها . سلطة العقيدة يوهمك بها شخص ، أو يفرضها عليك تقليد موروث . وسلطة القانون بأن لا تجعل للقانون من سلطة عليك . وسلطة الشهوات بأن لا تجعل للشهوات قوة تملكك بها . وسلطة الشرائع . بأن لا تجعل للشرائع من سلطان على ضميرك بأن تبتعد عن الخطيئات . وسلطة الخلق بأن لا تفعل فى سرك ما تتنكبه فى علنك . وسلطة الضمير بأن لا تأتى من فعل يؤنبك عليه الضمير .

وعلى الجملة فمن أجل أن تكون حراً ، يجب أن تتقيد بجمال الحرية .

## رأى فى الديموقراطية

للكاتب ج . ه . ولز الاديب الانجليزى المعروف خطبة القاها فى السوربون بفرنسا طبعها فيما بعد تحت عنوان « الديمقراطية فى الميزان » أعجبت منها بهذه الجمل .

« يخيل إلى أننا جميعاً متفقون على أن معنى الديمقراطية فى العصر الحديث قد عبر عنه بالتقريرات الآتية .

« كل المخلوقات الآدمية ذات قيمة واحدة فى نظر الله

أو من ناحيه القانون

« كل الناس متساوون أمام القانون

أو عملياً

« إن نقود شخص ما مساوية فى القيمة للنقود التى يملكها آخر

« وهذا يتضمن نقض كل الفروق القائمة بين الطبقات والامتيازات ، وكل ضروب الاخضاع . إنها إما نزعة الى التسوية ، وإما نزعة الى الثورة . وهذه التقريرات تتضمن فى الوقت ذاته تناقضا ، يظهر جلياً فى أن التسوية بين كل الشخصيات من حيث الأهمية والقيمة ، تجنح دائماً إلى تقييد بعض الافراد عن أن يبلغوا درجات أعلى ، و بوقوف كل الناس فى مستوى واحد ، يخضع كل الافراد للجماهير .



⁂

## التعليم ونتائجه

كل نظرية من النظريات التى لا تصقلها التجربة ، لتظهر مقدار ما فيها من الخطأ والصواب لا يمكن أن يوثق بها الثقة الكاملة ، مهما كان فيها من مظاهر الاقناع . ومن هذه النظريات قول العلامة هنرى جيمس الكاتب الاجتماعى المعروف اذ يقول :

« إن تعليم شعوب يضرب عليها عيش الفقر والعوز ، مع الطمع فى بقائها بعيدة عن الثورات المهدمة والغورات الفجائية المحطمة ، أمر بمثابة بناء هرم يرتكز فى الأرض على قمته لا على قاعدته . »

والظاهر أن هذه النظرية صحيحة من وجوه كثيرة . غير أنى لا أتخيل أن تطبيقها يؤدى إلى النتائج التى تخيلها هذا الكاتب الكبير . ففى أوائل القرن الثامن عشر ، كان من الممكن أن يتخيل كل مفكر نتائج هذه النظرية بالغة أقصى ما يعلن من سوء العواقب إذا هو أراد تطبيقها نظرياً على انجلترا مثلا ، وكان الفقر هنالك قصى الغور فى التأثير على

الجماهير ، كما كان الجهل بالغاً أقصى مبالغه . والآن وقد تعلم الشعب الانجليزى أرقى تعليم لم يجنح إلى الثورات والغورات الفجائية التى يمكن أن تؤدى اليها نظرية هنرى جيمس . ونرى من جهة أخرى أن أقل الشعوب الأوروبية تعليما وأحطها إدرا كا ، وفى الوقت ذاته أوسعها أرضا وأرزاقا ، وهو الشعب الروسى ، كان أقرب إلى هذه الثورات من كل الشعوب التى بلغت أرقى مبالغ التعليم كهولاندا وسويسرا والسويد ونرويج وانجلترا ، على ضيق أرضها وشدة التنافس فيها بين الأفراد .

أما الحقيقة التى يؤيدها العلم البيولوجى فتدل على أنه فى كل الزمر الاجتماعية ، والزمر الاجتماعية البشرية على الاخص ، نزعة الى ما يملن أن تدعوه « التعديل » تجبرها على التوفيق بين خيالياتها وبين حاجات الجماعة . فان أكبر الآثار التى نراها بارزة فى صور الاصلاح الاجتماعى ، لم تكن لدى الواقع نتيجة جهد قامت به زمرة من الزمر أو بضعة أفراد مصلحين ، بل كان نتيجة شعور استوى فى الاحساس به الاكثريات والاقليات بضرورة الاصلاح . فان الغاء الرقيق مثلا لم يكن نتيجة جهد قام به الأرقاء ، ولا نتيجة ثورات أشعلوا نارها ضد مسترقيهم . بل كان نتيجة شعور أحس معه المسترقون أن تحرير عبيدهم أعود بالخير على الطرفين . وهذه النزعة الاجتماعية يمكن الانتفاع بها فى الحصول على نظام يسد مطامع المتململين فى الحياة بما لا يدعوهم إلى الشعور بضرورة الثورة . ذلك لأن الظلم لا يحدث الثورات ، ولكن يحدثها الشعور به

فيلوبونس



# فلسفة الخطأ

## من الوجهة النفسية

« نقلا عن العلامة « هيو اليوت » : **Hugh Elliot**

— ١ —

يؤخذ كل من يقرأ تاريخ الفكر فى العصور القديمة ، بكثرة ما يعثر عليه خلال درسه من عناصر الخطأ المتغلغلة فى ثنيات الحقائق العامة . فاذا قرأنا التاريخ القديم مثلا ، وجدنا أن مقدار ما فيه من الخطأ قد يتجاوز مقدار ما فيه من الصواب . والراجح أن قدماء اليونان يمثلون أرقى مستوى للنبوغ والمواهب العقلية ، بلغ اليه شعب من الشعوب البشرية فوق هذه الارض على مدار العصور . وعلى الرغم من هذا نجد أن أساليبهم التفكيرية وفلسفتهم النظرية ، وكذلك مناهجهم العملية فى الحياة ، قد تردت جميعها فى حمأة الخطأ . فأنهم كانوا يعتقدون بسلسلة طويلة من الآلهة والآلهات ، لكل منهم سلطة خاصة فى حيز محدود . أما فكرتهم فى أصل الكون ، وقد بنيت على ما قال به فيلسوفهم « امبيذقليس » — Empedocles — إذ قضى بأنه يتكون من عناصر أربعة هى : التراب ، والهواء ، والنار ، والماء ، فكانت الخطأ كل الخطأ (١) . وكانوا يعتقدون بأن الشمس تدور من حول الارض ، وأن بلاد الاغريق هى مركز العالم الارضى ، وأن الارض مسطوحة مستوية . بينا نجد أن معتقداتهم فى حياة الحيوان وطبيعة الانسان ، عبارة عن نسيج يتعارض الخطأ فى خلال خيوطه الواهنة الضعيفة .

أما فى الحياة العملية ، فالخطأ ملء أساليبهم . وكذلك مبادئهم الادبية ، اذا قيست بالتصورات الحديثة فى شريعة الآداب العامة ، ظهرت كأنها قد قامت على أساس من الخطأ والفساد . وكذلك أساليبهم فى الحكم والنظام الحكومى ، ولو أن قياس

---

(١) أول من قال بأن أصل العناصر كلها الماء الفيلسوف طاليس Thales أول فلاسفة اليونان . وهى فكرة أخذها عن المصريين ، أما هذا التكوين « الرباعى » الذى قال به امبيذقليس فعبارة عن مجموع مذاهب فى أصل العناصر قال بها فلاسفة من قبله « العصور »

حكوماتهم بحكوماتنا ، يظهرنا على أنهم كانوا من هذه الناحية أقل خطأ من غيرهم من الأمم والشعوب .

وما يصدق على التاريخ القديم ، يصدق على تاريخ القرون الوسطى . فانها أزمان سادت فيها تصورات خاطئة فى الحياة والكون ، حتى لقد امتدت فيها أصول الخطأ فى بعض الأحيان إلى أغوار لم تبلغها فى العصور القديمة . ذلك لأن الناس فى القرون الوسطى قد جعلوا لمعتقداتهم وتقاليدهم الخطر الاول والمنزلة العليا ، فكانوا أقل تسامحاً فى الرأى ، وعلى الأخص عند الاختلاف فيه ، مما كان أهل المدنيات القديمة . فان الكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى قد استمسكت بأخطاء أجبرت الناس على أن يمضوا بها قانعين ، واضطرتهم اليها مستعينة عليهم بالمخلعة والسندان (١) وكذلك العلم والفلسفة خلال تلك القرون ، كان الخطأ طابعها . وأما الآداب ، فكانت عبارة عن مجموع ما ندعوه اليوم استبداداً ووحشية . وعلى الجملة نرى أن الخطأ الذى ساد آراءهم وأعمالهم ، يكاد يربو على الصواب .

فاذا عدنا فى التاريخ القديم إلى النظر فى حالات المتوحشين فى العصر الحاضر فاننا نعود إلى مواجهة الخطأ سائدا أينما ولينا وجهنا وحيثما كنا . فالمتوحشون لهم من صور الميثولوجيا — الخرافات المقدسة — مايكافىء توحشهم وهمجيتهم . وكذلك آراؤهم فى الانسان وفى الروح الانسانية . فان أساسها خطأ لايستحق اليوم إلا احتقارك واشفاقك . ثم تصورهم لطبيعة السبب والمسبب أو العلة والمعلول، ليس فيها إلا الخطأ والبعد عن الصواب . ثم حكوماتهم . فانها حكومات ليس فيها إلا الاستبداد والقوة الغاشمة . وحياتهم اليومية والعائلية ، فانها بعيدة عن أن تكون مجلبة السعادة .وعلى الجملة نرى أن الهمج عبيد معتقداتهم وأوهامهم . ذلك لأن الخطأ لا الصواب ، هو الذى يحتكم فى المبادىء الأولية التى تقوم عليها حياتهم .

ولن نشعر مطلقاً بأن الخطأ قد خضع لضرب ما من ضروب الصواب والحق ، وأن السفه قد استقوى عليه الرشاد بصورة ما من الصور ، إلا إذا تدبرنا حالات عصرنا الذى نعيش فيه ، والقواعد التى تقوم عليها مدنيتنا . بل نتعدى هذا الحد فنقدر أنفسنا بما لا نقدر به أية أمة أخرى ، ونعتقد بأننا أخص الأمم استمسا كا بحرية الفكر وأشدهن حرصاً على تطبيق الطريقة العقلية ، وأننا أقدرهن على تنظيم حياتنا

---

(١) من آلات العذاب فى القرون الوسطى « العصور »

جرياً على أسمى المبادىء المنطقية ، وأننا قد زودنا بقوة تجرى بنا فى أقوم طرق الحياة . وقد نختلف بعض الاحيان تلقاء بعض ماتؤدى اليه الابحاث العلمية من النتائج ، ولكننا مع اختلافنا هذا ، لايمر على خاطرنا ريب فى أن علومنا الحديثة تحتوى على مجموعة كبيرة من الحقائق ، تخلصت تماماً من آثار الخطأ والفساد (١) وكذلك نحن إزاء المسائل الدينية ، فاننا لانتفق عليها اتفاقاً تاماً . ولكننا مهما اختلفت نظراتنا الفردية فى الدين ، فانا نعتقد بأن مبادئنا الدينية مبادىء صحيحة قويمة ، وأننا نستطيع من طريقها أن نعثر على الحق . كذلك ليست الخلافات التى تقع بيننا الا ظاهراً من التناقض لاتبلغ حقيقته إلى الحد الذى نتخيله . فاللا أدريون والدينيون من أهل العصور الحديثة يتفقون على أشياء عامة أكثر مما يتفقون لا أدريى العصور الوسطى ، أوأهل الدين فيها . وما يصدق من هذا القياس على أهل العصور الوسطى ، يصدق على أهل العصور القديمة . فرجل من رجال الكنيسة فى هذا العصر قد ينقلب بسهولة الى لاأدرى صميم ، كما يتفق أن يصبح أحد اللا أدريين من أخص رجال الكنيسة . فان تقلبات كبيرة كهذه أصبحت من الحوادث العادية التى لا تستحق اهتمام الناس ولا تثير دهشتهم . غير أننا مع هذا لن نرجع إلى تلك الصورة الميثولوجية التى توعز لنا بربوبية « ابولون » أو « زيوس » (٢) وكذلك لن نرجع إلى أسلوب عقلى يزين لنا ان ندافع عن نظام التفتيش الذى جرى عليه أهل القرون الوسطى . وعلى الجملة ، نرى أن الخطأ الذى تغلغل فى معتقدات أهل الازمان الاولى ونظاماتهم وحالات حياتهم ، قد ازاحه عن أفقنا أسلوب المعرفة الحديث والبحث العلمى على قواعده الجديدة .

وكذلك الحال اذا انتقلنا إلى اشياء أخرى . فانا نجد اننا لسنا إزاءها باسعد حظ منا بازاء الاولى فى الوقوع على الحق . فان قانون الآداب مثلا ، لم يناقش حتى الآن مناقشة جدية . فانا نقتصر على امتهان الاشخاص الذين لايراعون ذلك القانون ونحتقرهم ، ولكن المبادىء الأساسية من هذا القانون لم تناقش ولم تنتقد . ولقد يقوم بين آونة وأخرى مصلح من المصلحين يدعو الى تغيير بعض المبادىء من شريعة الآداب . غير اننا نلاحظ دائماً أن مادعي إلى تغييره من هذه الشريعة حتى الآن كان تافهاً . كما كان غير ماس الا بالظاهر دون الجوهر . ومع هذا فان المصلحين الذين هم من هذا الطراز يعتبرون عادة من رجال الثورة والانقلاب . وربما تناولهم البعض بنقود يحاولون

---

(١) اذا ضاق نطاق المعرفة اقتصر الخلاف على الكليات ، واذا اتسع نطاقها تناول التفاصيل وأدق الاوضاع « العصور »

(٢) من آلهة الاغريق القدماء

من ناحيتها أن يسفهوهم تسفيها قائما على المقارنة بين ما يدعون اليه وبين مبادىء تستمد من مخلفات فلاسفة اليونان من الاخلاقيين . كما أن القائمين على نظام الكنيسة قد يثورون ضدهم مستمدين من مبادىء الكنيسة فى القرون الوسطى سنداً يعززون به ثورتهم ويؤيدون به موقف العداء إزاءهم .

وفضلا عن ذلك فانك تجد ان نظامنا الحكومى نظام يظهر لأول وهلة كأنه قائم على مبادىء أدنى إلى العدل ، من كل نظام حكومى سبقه خلال الازمان السابقة . فمبدأ التمثيل النيابى قد بعد عن أن يكون موضع خلف أو جدل، بل أصبح قاعدة معترفاً بها . وكذلك ثبتت أصول الديمقراطية بيننا ، فتحررنا ، كما نعتقد جميعاً ، من الأخطاء والشرور التى كانت تختفى دائماً وراء الحكومات الفردية الاستبدادية وحكومات الأقليات . هذا هو تصور الاكثرية، على الرغم من أن هنالك أقلية تتصور ضد هذا. وهذه طبيعة العقل الانسانى. فان الاتفاق الشامل على أى شىء من الاشياء التى يمكن أن يبدعها العقل الانسانى ، امر لم يحدث مطلقا خلال التاريخ المعروف . والظاهر أنه لن يحدث فيما بعد . فلكل عصر من العصور افراده الذين ينحرفون عن إجماع الاكثرية. وله مفكروه الذين يتخذون وجهة مخالفة لوجهة النظر التى تنتحلها الاغلبية . فلدينا فى هذا العصر فئة من الافراد الذين يعتقدون أن الشمس تدور من حول الارض ، كما كان فى عصر اليونان فئة انحرفت عن رأى الاغلبية فاعتقدوا أن الأرض هى التى تدور من حول الشمس غير أن أمثال هؤلاء لا يقام لهم وزن من حيث التأثير فى عصورهم . فاننا كاحدى سلالات النوع البشرى. إنما نؤمن بالديمقراطية ، إيماننا بالنظام الشمسى وبنشوء الانواع . وعلى القاعدة ذاتها نعتقد فى بضعة مبادىء دينية وعلمية وأدبية . وكذلك نؤمن بأننا على وجه العموم قد حصلنا على وجهات من النظر قويمة فى الحياة وفى الكون . وأن تأملاتنا الفلسفية ونظاماتنا الاجتماعية غير متغلغلة فى ثنايا أخطاء جوهرية ، كما كانت التأملات الفلسفية والنظامات الاجتماعية بين غيرنا من الاقوام الذين عاشوا فى العصور الأولى أو بين السلالات البشرية التى تعيش الآن خارج نطاق الحضارة الحديثة. وهكذا الحال فى نظام حياتنا اليومية . فان آمالنا ورغباتنا والاغراض التى نعتقد أننا من أجلها نعيش، تظهر لنا كأنها قائمة على قواعد وأسس أقرب إلى حقائق الحياة ومعانيها الشتيتة . ثم مطامعنا ومرامينا وجهودنا ، ليست مفقودة ، كما كانت فى الماضى ، بمنازع خاطئة مسفة. فانها على الجملة تمثل وجهة من النظر فى الحياة ، تظهر لنا أنها صحيحة غير فاسدة ولا مضللة . (١) للبحث بقية ، تظهر تباعا .

---

(١) بدأنا بنشر هذا التمهيد لنتابع النقل فى لب الموضوع . وسنعمل جهدنا لكى نقف بكل قسم منه عند نهاية فكرة معينة فى سلسلة البحث .

# حزب الفلاح

## هو حزب المستقبل الذى يقوم عليه الاصلاح الاجتماعى

شئت أن أبذل أقصى ما أستطيع من الجهـــد فى سبيل نصرة الفلاح ، ونصرة الحزب الذى يجب أن يتكون لينطق باسم الفلاح ، ويترجم عن حاجاته التى هى فى الواقع حاجات حيوية ، إن تحققت تحقق معها قسط وافر من الاصلاح الذى ينشده المخلصون ، وإن لم تتحقق فقد القطر المصرى بفقدانها كل أمل فى بناء حضارة تقوم على أساس العلم العملى كما قرره علماء القرن العشرين . لهذا أنشأت صحيفة « العصور الأسبوعية » لتكون بجانب العصور الشهرية أداة سهلة التناول تقرب من الأذهان حقيقة الفكرة التى أريد أن أروج لها ، والتى سوف أبذل فى سبيل تحقيقها كل ما أستطيع من جهد وصحة ومال ، على قدر المستطاع . غير أنه استبان لى أن القيام بكل هذه الأعباء واحداً فرداً بلا نصير ولا معين ، أمر بعيد عن الامكان متعذر لمن كان مثلى جزأته الواجبات وحطت عليه المسئوليات من كل ناحية،ففضلت أن أقف اصدار « العصور الاسبوعية » وأن أجعل كل جهدى قاصراً على العمل فى العصور الشهرية على أن تكون لساناً ناطقاً عن حزب الفلاح ، وأداة أتخذها وسيلة فى سبيل تكوين هذا الحزب على القواعد الأساسية التى شرحتها فى برنامجه الذى وضعته له ، وتقدمت به للأمة المصرية كلها ، مقتنعاً بأنى إنما أعمل فى سبيل تحقيق واجب من الواجبات الضرورية المقدسة ، التى أوقن بأنها أمانة فى عنقى مادمت قد آمنت بصحة قواعدها ، وإنه من حقى أن أبشر بهذه الأمانة لأبناء هذا الجيل ، مادمت على حق ، أو بالاحرى ، مادمت أعتقد أنى على حق .

ولقد دلتنى التجارب القصيرة التى مارستها خلال الأشهر الأخيرة عاملا فى سبيل تكوين حزب الفلاح ، على أشياء كثيرة بالغة منتهى الخطورة . على أن بعض هذه الاشياء يفضل بعضاً من حيث القيمة والوزن ، إذ أنت نظرت فيها من الناحيتين الاجتماعية والسياسية . فقد استدللت على أن فى مصر صحفيين ينظرون إلى المسائل بعين واحدة ، بل ومن زاوية واحدة ، على حد قول البعض ، وان منهم فئة تنظر الى الأشياء نظرة لهو وعبث ، وأنهم لايعرفون الجد وإعنات النفس الا حيث يقعون على أشياء يستطيعون من ناحيتها أن يجنوا ربحاً من مناورة صحفية ، أو دسيسة

ساقطة أو قذف بذىء أو افتيات على حق أو اعتداء على حرية أو سعى لاضرار ، من غير أن يزنوا الحقائق بميزان التريث والحكمة . وأين هم من ميزان التريث والحكمة ، وقد قضت عليهم الحزبيات ففككت الألفة من عقولهم ، وأبعدهم الغرض عن أن يسقطوا إلا على الباطل . ولقد فسدت فيهم الطبيعة بقدر ما فسد الطبع ، فهم لايسقطون إلا على الباطل ، حتى ولو حاولوا جادين غير متجانفين لأثم أن يسقطوا على الحق . ذلك لأن بينهم وبين الباطل جذباً ، كما أن بينهم وبين الحق دفعاً .

## حزب الفلاح والأحزاب :

تبادر الى ذهنى تصوراً لا اقتناعاً ، أن قيام حزب الفلاح ، وهو فى يقينى حزب الاصلاح الاجتماعى ، على مبادىء اجتماعية قويمة تكمل برنامج حزب سياسى يعمل على تحرير البلاد ، يكون أسرع انتاجاً وأقل جهداً وأقوى مكانة ، من أن يتكون تدرجاً وحالا بعد حال . لهذا قدمت المشروع لصاحب الدولة « مصطفى النحاس باشا » واخترت ، ولست أدرى على أية قاعدة اخترت ، أن يكون رئيس حزب الوفد رئيساً لحزب الفلاح ، بصرف النظر عن الشخصيات . غير أنى لم ألبث على هذا غير قليل حتى استبان لى أن اختيارى كان تعجلا ، وأن نظريتى كانت مكتنفة بعدة عوامل تبعدها عن التحقيق ، بل وتقصيها عن أن يكون لها أثر عملى فى الخارج . فحزب الوفد حزب يعمل على استقلال البلاد من ناحية سياسية ، ويجابه بمطاليبه الامبراطورية البريطانية التى تعمل فى أول ماتعمل له ، على محاربة الشيوعية . فكيف بحزب الوفد اذا أتهم صبيحة أخذه بناصر الفلاح وحزب الفلاح بالشيوعية ؟ أمر من الطبيعى أن يستغل ضد الوفد وضد القائمين بأمر الوفد ، وضد السياسيين الذين يعملون فى القضية العامة . اذن ففكرتى كانت خطأ من هذه الناحية . واذن يجب أن يتكون الحزب بجهد من يريد أن يقوم بأعباء تكوينه .

كذلك غاب عنى أن المذهب السياسى لن يتفق مع المذهب الاجتماعى ، اللهم الا اذا صبر السياسيون على الخضوع لحقائق الاجتماع القائمة على أساس العلم الاستقرائى . وهذا أمر يكاد يكون من المحال تحقيقه . فلا شبهة عندى مطلقا فى أن السياسى إذا عمل فى السياسة باعتباره رجلا اجتماعيا يدرس الاجتماع على قواعد العلم ، فانه لا يلبث أن يطلق السياسة ثلاثا . وإذن فلا سياسة حيث يكون اصلاح اجتماعى ، ولا إصلاح اجتماعى حيث تكون السياسة . فان السياسة إنما تماشى الجماهير نحو الاصلاح ، لا اقتناعا بوجوب الاصلاح ، ولكن استغلالا لشعور لا تستطيع قمعه ، فتجاريه

لئلا تخسر الموقف . ظاهرة كثيراً ما أفسدت وجوه الاصلاح ، كما أفسدت وجوه السياسة و زادتها شراً على شرها .

هذه الاعتبارات جعلتني أفكر فى أن أجاهر بأن حزب الفلاح إنما يدعو الى الاصلاح بعيداً عن الاعتماد على أى حزب من الاحزاب . بل جعلتني أعتقد أن حزب الفلاح إن أمكن اخراج الفكرة فيه إلى حيز الوجود الفعلى ، فانما يتيسر ذلك بأبعاده عن السياسة وعن الاحزاب السياسية . وهذا لا يمنع من أن يكون لكل منتسب له فكرته السياسية المستقلة عن التأثر بالفكرة الاجتماعية على اطلاق القول .

## حزب الفلاح وصحيفة الاحرار الدستوريين

إن أكبر دليل يقوم لدى على صحة الاعتبارات التى أدليت بها ، ما نادت به صحيفة السياسة ناطقة بلسان الاحرار الدستوريين ، على الرغم من أنوف بعض الدستوريين كما أعرف جيداً ، من أننا ندعو الى نضال الطوائف أولا ، ثم اننا ندعو الى الشيوعية ثانياً ، ثم إن لنا صلة بشيوعية موسكو ثالثاً ، ثم بالدولية الثالثة رابعاً ، ثم اننا نستولى منها على القناطير المقنطرة من الذهب والفضة خامساً . ولا شك عندى فى أن حزب الوفد لو كان قد أخذ بفكرتى فى مناصرة تكوين حزب الفلاح ، إذن لكان بهذه التهم أولى من شخصى الضعيف .

تنشر صحيفة الاحرار الدستوريين الافتتاحيات الطويلة ضد العصور ودار العصور . ولماذا ؟ لأننا نناهض النظام الاجتماعى وندعو لنضال الطوائف ونتصل بشيوعية موسكو ! هذا فى الظاهر . أما الحقيقة فاننا نرمى بهذه التهم لاننا دعونا حزب الوفد إلى الأخذ بناصر الفكرة ولأن العصور الأسبوعية صدرت فى عهد وزارة الوفد ! وإذن فمن الواجب الوطنى ومن خدمة الوطن ومن الشرف الوطنى والحماس الوطنى إلى آخر ما هنالك من المصادر والنعوت والأسماء التى يصح أن تضاف الى لفظ « الوطنى » أن تهاجم العصور وأن يهاجم صاحبها من صحيفة الاحرار الدستوريين التى يشرف على تحريرها شخص ، لا أظن أن من الصحفيين من يعرف صاحب العصور أكثر منه ، والذى أتذكر أننى عند ما قدمت له رسالتى ضد الاشتراكية ، كان رأيه أنى تطرفت ضد الاشتراكية — بله الشيوعية والدولية الثالثة — إلى حد كبير ، وأننى متحامل ضد بضعة نظريات ، يرى هو أن الاشتراكية فيها على حق .

* * *

والآن وقد أزمعت أن أعطل « المصور الأسبوعية » إلى حين ، فانى أتخذ من العصور الشهرية لساناً أعبر فيه عن رأيى فى حزب الفلاح ، وأدعو على صفحاتها إلى تكوينه ، مقتنعا تمام الاقتناع بأن تكوين هذا الحزب من الضروريات الأولية التى يقوم عليها أساس الاصلاح الاجتماعى فى البلاد . وأن حزب الفلاح سوف يتكون عما قريب ، دعونا الى تكوينه أم لم ندع ، فان الضرورات الاجتماعية تدعو حتما إلى تأسيس النظامات . ولا يخرج حزب الفلاح عن انه نظام اجتماعى ضرورى لهذه البلاد ، ولا أتحرج فى أن أقول بأن هذا الحزب أشد ضرورة لمصر من كثير من الأحزاب التى تزهو كالفطريات اذا أصابها ندى الليل ، وتذبل وتهن اذا لفحها حر النهار . وأظن ان الاستاذ هيكل بك أدرى بهذه الاحزاب منى .

هذا . ولسوف أثابر على الدعوة إلى تكوين هذا الحزب الاجتماعى بعيداً عن الاحتكاك بالاحزاب ، فاننا اذا نصرنا الفلاح ، فانما ننصر عنصر الانتاج والثروة والقوة فى البلاد . ولا جرم أن هذه الدعوة ، ولو لم نستطع أن نؤسس حزب الفلاح إلا بعد أمد طويل من السنين ، سوف تؤثر فى توجيه الفكرة إلى إصلاح حال الفلاح حتى ولو من طريق سلبى . ولا ريب عندى فى أن هذا الربح سوف لا يرضى هيكل بك كاتب صحيفته ، لأنه على الاقل ، سوف يقوى به ساعد الفلاح فى النضال الطائفى الذى يستشفه هيكل بك تخيلا من وراء الحجب الكثيفة .

إن الدعوة إلى تكوين حزب الفلاح مضمون معها هذا الربح . إذن فلا يجب أن نحرم الفلاح فائدته . إنه ربح محتوم . ولئن استطاع فرد واحد أن يربح للفلاح هذا الربح الكبير بدعوة يدعو فيها إلى تكوين هذا الحزب ، فانى ولاشك أعتقد أن الكف عن هذه الدعوة يكون جريمة نفسية لا تحتمل . لهذا سندعو إلى تكوين الحزب على الرغم من أنف هيكل بك رئيس تحرير السياسة ، وعلى الرغم من أنف كل هيكل مثله فى الارض .

اسماعيل مظهر

# الاسلام

## ومسألته فى التاريخ

## تأليف المستشرق المعروف

## كارل . هـ . بكر (١)

## C. H. Becker

— ١ —

لست أجد من ضرورة فى الوقت الحاضر تحفزنى إلى تبرير وجود الاسلام توطئة لدرسه . وكما أن درس التاريخ القديم يتمشى جنباً لجنب مع درس اللغات القديمة ، كذلك بحث الاسلام من الوجهة التاريخية ، انما يتيسر بدرس فيلولوجى ـ لغوى ـ يتناول اللغات التى تتكلمها الأمم المحمدية .

ومن السهل فى مقال تمهيدى كهذا ، أن نلم الماماً أولياً بتلك المشكلات المتشابكة التى يجب أن يتصدى لها الباحث اذا ما أزمع أن يدرس الاسلام .

غير أنه يكون من الحماقة أن يضع الباحث تصميماً للطريقة التى يجب أن ينصرف اليها ، من غير أن يحاول فى الوقت ذاته أن يضيف إلى الموضوع شيئاً جديراً بالنظر والاعتبار . لهذا عمدت فى هذا المقال إلى بحث مسألة الاسلام نفسه ، لا المسائل المتعلقة بالاسلام

تستعمل لفظة « الاسلام » عادة فى كثير من المعانى المختلفة . فقد نستعملها لتدل على دين الاسلام ، سواء أتكلمنا فى تعاليم محمد الأصلية ، أم فى مجموع المذاهب القديمة التى هى شىء مختلف تمام الاختلاف عن تلك التعاليم ، أو فى دين المسلمين المعروف

---

(١) كارل . هـ . بكر Carl. H. Becker وزير الفنون والعلم والتربية فى ألمانيا ١٩٢٧ — وهو أحد مشهورى المستشرقين . أما أبحاثه الاسلامية فتعتبر من أدق المباحث وأطلاها وأكثرها ابتكاراً وأعمها فكرة وأصحها سنداً . ولقد ترجم كتابه ( فتوحات العرب ) الى الانجليزية وضمته جامعة كمبردج الى مجلداتها التى تخصصها لتاريخ القرون الوسطى -١٩١٢ - وله مجلة ذات شهرة واسعة اسمها (الاسلام) Der Islam تكاد تكون المحور الذى تدور من حوله كل الأبحاث المبتكرة فى تاريخ الاسلام . ونبعاً فائضاً للتنقيب المنتج فى أخص المسائل التى تتعلق بالمدنية الاسلامية ( المصور )

اليوم فى آسيا وافريقية . وسواء أوعينا فى أذهاننا أوجه النشاط الدينى التى يبديها الأتراك أو الزنوج ، وسواء أتكلمنا فى الغزالى أم فى المهدى السودانى ، فاننا نستعمل اللفظ ذاته ونقول « الاسلام » . وكلما كانت معارف الناس أقل ، كانوا أشد نزعة إلى التعميم . فمن ذا الذى يجرؤ مثلا على أن يصف الاوضاع الكنسية فى بلاد الحبشة بأنها ذات النصرانية ، من غير أن يعرض نفسه للاستهزاء والسخرية ؟ ولا جرم أن القول بان هذه الأوضاع هي بذاتها البروتستانتية النصرانية ، من غير تعديل أو تكافؤ بين الحالات ، لأبعد من أن يتورط فيه باحث يزن الاشياء بميزانها الصحيح .

ولم نكتف بهذا ، بل استعملنا لفظ « الاسلام » ليدل على إحدى امبراطوريات الشرق العظمى ، أو على كل الحكومات المتفرقة التى كانت تنشأ عادة على أنقاض الامبراطوريات الكبرى وبقاياها ، حتى لقد نطلق الاسم على الحكومات المحمدية التى نراها قائمة من الزمان الحاضر . غير أننا لم نعن « بالاسلام » مجرد الحكومات الفعلية ، بل صرفناه على شيء أكثر من هذا خطراً . فعرفناه على أن نظرية سياسية سواء أقامت تلك النظرية على مذهب سياسى أو مبدأ تنزيلى .

وكلما استعمقنا فى بحث هذا الموضوع ، ازددنا اقتناعاً بضرورة التفريق بين المدلولات . غير أنه ليس فى وسعنا أن نقرر بصلابة أن تعريفاً جامعاً مانعاً يجب أن يوضع لتحديد ما نعنى بلفظ « الاسلام » فى كل حالة من الحالات الخاصة ، وعلى الأخص إذا عمدنا إلى وضع تقديرات معينة للقيم المتناظرة . على أن الباحث الاختصاصى مهما جهد نفسه فى التحوط والحذر ، ومهما بذل من عناية فى استخلاص تلك التحديدات الضرورية ، فانه لامحالة يستعمل تلك اللفظة العامة — « الاسلام » — على أنه يجب أن نتساءل : هل لهذا من مبرر ؟ أو بعبارة أخرى : هل كل المعانى المختلفة التى يجمع بينها هذا الاصطلاح ، تدخل حقيقة تحت مدلول « الاسلام » عامة ، ذلك المدلول الذى لايخرج بدياً وتخصيصاً ، عن أنه دين ؟ غير أن هذا السؤال قد أجبنا عليه مقدماً وحددناه ، إذ قلنا بأن اصطلاح « الاسلام » ومسألته فى التاريخ ، قد استعملناه من غير أن نضيف إلى ظاهره مدلولات أخرى .

أما وقد حللنا كلمة « الاسلام » ، فانا بذلك نكون قدجاوزنا النظر فى العوامل الأساسية ، التى إذا أخذت فى مجموعها ؛ كونت ذلك الشيء الذى نحس بأنه التصور الوحيد الذى يمكن أن نكونه فى « الاسلام » : أى ذلك الايمان الكلى المتماسك الاطراف ، وذلك المثل السياسى الاعلى المتآلف الاجزاء ، وتلك المدنية المتناسقة التى

تمشى فى أجزائها فكرة الوحدة والائتلاف ، والتى فضلا عما نجد فيها من الاختلافات الموضعية ، نلمح فى مجموعها وحدة المثل العليا ، كما نقع فيها على شىء من الوحدة فى العمليات . وما من شك فى أن « الدين » هو الذى يجمع بين هذه العوامل الشتيتة ، وأن الفكرتين ، السياسية والمدنية كلتيهما ، لم تكونا لتنتشرا وتثبتا مع الزمان ، لولا قيامهما على قاعدة الدين . وكذلك نجد فى الوقت الحاضر أن « الاسلام » رابطة من الوحدة قوية ، عادلت فى كل عصور « الاسلام » قوة « القومية » الشديدة الأثر فى النفوس ؛ فجمعت بين الناس وكونت منهم عصباً أقوى وأشد مراساً . فان زنجياً من زنوج قبيلة « الونغيدو » — Wangido فى شرق افريقية الألمانية اذا أصبح مسلماً ، فانه لا يتسمى باسم قبيلته بل يتسمى « بالاسلام » (١) ويصبح العربى أخاً للزنجى المسلم ، وبذلك تتماسك كل الخيوط المختلفة وتتفق كل النزعات المتنافرة من حول المركز الدينى فى مكة (٢) وفى مناوأة أوروبا على الأخص . نجد أن المسلمين يشعرون شعوراً عميقاً بأنهم وحدة متماسكة الاطراف (٣) لهذا يحق لنا أن نتكلم ، مادام أن الدين يصبغ الحياة اليومية بصبغته الخاصة ، إن قليلا أو كثيراً ، فى مدنية إسلامية ووحدة الاجزاء ، تنقل الى الذهن دائماً حقيقة إن هـــذه المدنية الدينية مؤثر فصل يقطع بين حدين قطعاً تاماً



وهذه الحالات التى لانشك مطلق الشك فى أنها لاتزال قائمة حتى اليوم ، قد زادت إلى صعوبة الفهم لدى البحث فى تاريخ نشوء الاسلام . وإذ نعرف أن الدين إلى الوقت الحاضر ما يزال العامل الأقوى الذى تقوم عليه كل الأشياء الأخرى مما يتعلق بالاسلام والمسلمين ، وإذ نرى أن كل الظاهرات التاريخية الخاصة بالاسلام يجب أن يرجع فيها إلى مؤسس الديانة ، فأى شىء يمكن أن يكون أقرب إلى البديهة من أن نعتبر

---

1 Missions — Bletter ( journal of the st . Benedictus — Missions — Jenossenchaft, st. Ottilien ) X111, Heft 9. p 130.

٢ — راجع كتاب ويلسون كاش — Wilson Cach — العالم الاسلامى فى انقلاب ص ١٠ فانك تجده يقول . ابتدأنا نختلط بالحجاج وقد ازمعوا السفر الى الاقطار المقدسة . ولقد استطعنا ان نتخاطب مع بعضهم ونسألهم من تكونون فكان جوابهم جميعاً واحد اذ كانوا يقولون — مسلمون — Muslimeen ولم يستطيعوا أن يدركوا غرضنا الابعد تكرار السؤال مرات عديدة ، اذ أيقنوا بأننا نسأل عن قوميتهم .

٣ — نشك كثيراً فى صحة هذا الرأى الآن . فان فكرة القومية قد استقوت فى النهاية على كل العناصر الاسلامية فى أنحاء الدنيا .

الدين العامل الأساسى، ان لم يكن العامل الاوحد ، الذى تعود اليه حقيقة خلق مدنية إسلامية متلائمة الاطراف؟ (١)

ولدينا عامل آخر نتج عن العكوف على عادة النظر فى الاشياء من وجهة النظر الكنسى ، تلك العادة التى ورثناها عن القرون الوسطى . ولا جرم أن هذا الاتجاه لايزال ثابتاً فى نفسيتنا لدى النظر فى الاسلام حتى الوقت الحاضر . فقد اعتدنا فى القرون الوسطى وحتى فى أوائل العصر الحديث ، أن ننظر الى الاسلام بدياً على أنه دين معاد ، وضع حداً لانتشار المسيحية وهددها فوق أرضها ، وغزاها فى دارها . وكانت النظرة التى نظر من ناحيتها فى نشوء الاسلام قد انحصرت فى الاعتقاد بأن الدين الجديد قد ملأ صدر العرب حماسة وأفعمها حمية ، وأن المسلمين قد اندفعوا الى الفتح الحربى تحت تأثير الرغبة الشديدة فى هداية أهل الارض الى الاسلام ، وانهم يعملون على نشر دينهم بالسيف ، وان محمداً كان نبياً ورجلا سياسياً معاً ، بل أعتقدوا بأن الثقافة العربية ممزوجة بالدين الجديد «الاسلام» قد كونت تلك الصورة التى تعرف بالمدنية الاسلامية ، وانه على الرغم من أن عدداً من النظامات والفكرات الجاهلية ، قد استمرت باقية ثابتة الاثر ، فان الدين وحده لم يكن السبب الذى خلق المدنية الجديدة ، بل صورها ونظمها لا غير .

إذن فالدين هو القاعدة ، وكل الصور النشوئية الاخرى ، لم تكن الا نتيجة من نتائجه . فكان من الضرورى على مقتضى هذه الفكرة ، أن يدمغ الدين طابعه الثابت فى جبين الوحدة الصورية والخلقية . ومن هنا نشأت الفكرة فى مدنية اسلامية متلائمة الاجزاء ، موحدة الاطراف .

ولا مشاحة فى أن كل باحث يتصل بكتاب العرب وفكره ملىء بمثل هذه الآراء ، وبجانبها نظرة غير صحيحة نشأت حول تاريخ النصرانية (٢) ، يجد أنها آراء

---

١ — هذا الرأى صحيح من كل الوجوه . فالمدنية التى نسميها المدنية العربية ليست لدى الحقيقة الا مدنية اسلامية اخذت صبغتها العامة من رقع استمدت من مختلف صور الحضارة التى اختصت بها الشعوب التى دخلت فى حوزة الاسلام والفت بينها على النحو الذى نراه جلياً فيما نسميه بالمدنية العربية — المصور

٢ — يشير الكاتب الى ارنست ترولتش Ernst Troeltsch فى كتابه — ( Collected Works Vol. t. ) Die Soziallehren der christ lichen Kirchen

ويعترف المؤلف بأنه مدين لهذا المؤلف بكثير من الفكرات التى عنت له خلال هذا البحث من قراءة هذه القطع وغيرها من القطع المتناثرة خلال هذه المجموعة .

لها سناداتها ومبرراتها . ذلك لأن السلطات المحمدية لها قواعد كهنوتية ١ مقررة مفروغ منها . كذلك تراهم يقررون جملة ، بأن نشوء الاسلام من خلق محمد ، ومن ابتكار الخلفاء الراشدين في عصر الاسلام الذهبي . وعندهم ان الحكومة والمجتمع ، وكذلك الحركتان العلمية والاقتصادية ، جماعها تخضع للاوضاع الدينية . وكان المتبع أن يخلع من هذه الارض الدينية التي اعشوشبت بمختلف النظريات ، كل نبتة طفيلية يمكن أن تنبت في جنب من جوانبها ، وتنبذ نبذا . اذن فالعالم الاسلامي محكوم بالدين ، سواء أفي ماضيه أم حاضره ، ولو نظرياً على الاقل .

غير أن النقد الحديث لم يتناول هذه المباحث الامنذ عهد قريب لايتجاوز بضعة عقود من الزمان، وعلى الاخص بعد ظهور كتاب «تاريخ الثقافة» Kulturgeschichte الذي الفه العلامة الكبير « الفرد فون كريمر» Alfred Von Kremer ولقد نجحت الابحاث الحديثة تدرجاً وعلى مر الايام في أن تتحرر من تقاليد « الاسلام » ، وعمد الباحثون وطلبة العلم ، سواء أفي السياسة والشريعة ، أم في الدين والحياة ؛ الى التفريق بين النظريات والعمليات ، ولقد حققوا بهذه الوسيلة ان الانتصار في المعركة التي قامت بين مطاليب الدين ومقتضى العادات القومية ، قد حالف الثانية دون الاولى . بل أثبتوا أنه في خلال الصراع الذي قام بين مختلف الآراء المتنابذة ، لم يكن اللون الديني غالباً الا عبارة عن وضع أدنى ، لا أقل ولا أكثر . ورأوا أن الشريعة الدينية لم تنشأ متطورة عن الاوضاع التشريعية العملية التي كانت قائمة بالفعل ، بل أتت منابذة لها ، ومن ثم اتضح أن بناة الامبراطورية العربية لم يكونوا يعملون على نشر الدين كسبب مباشر لفتوحاتهم على اطلاق القول ، بل عملوا ، في أول ماعملوا له ، على تثبيت سلطة العرب الزمانية وتركيز سيادتهم في ماجاورهم من الامبراطوريات ولا جرم أن جماع هذا يزودنا بمادة واسعة تشبع نهم الفكر . لهذا يحق لنا أن نتساءل حين نواجه هذه الحقائق ، اليست فكراتنا التقليدية التي ثبتنا عليها في حقيقة الدور الذي لعبه الدين كعامل من العوامل المكونة في الاسلام ، تحتاج إلى تعديل ، وتفتقر إلى اصلاح ؟ ٢

« البقية في العدد التالي »

---

(١) Clerical

(٢) العصور — ستوالي نشر هذا المقال القيم في أعداد العصور تباعاً لتعذر نشره دفعة واحدة لما يحتاج من الفراغ الكبير.

# موت افلاطون

الفيلسوف اليونانى المعروف بالفيلسوف الالهى مؤسس المذهب الاكاذيمى فى الفلسفة . ولد بأيجينا Aegina سنة ٤٢٩ . ق م توفى سنة ٣٤٨ ق . م .
نقلا بتصرف عن مجلة هبرت — Hibbert — بقلم ج . م سارجنت
**J. M. Sargeant, M. A.**

---

مرت على الطبيعة انفاس الربيع مبكرة فى ذلك العام ( ٣٤٨ ق . م ) بارض أغريقية . واعتدل مزاجها فى نهاية الشتاء ، فتوالت الايام مشمسة وضاحة الجبين ، اللهم الا بضعة أيام كان يتخللها فى المطر رذاذ يحي الموات من أعشات الشتاء ، وتتنفس معه الصدور ذلك العبق المنعش الذى تبعثه أوراق شجر الصرو والصنوبر فتهز أعماق النفوس وتشعرها بأن الحياة حقيقة ، وأنه بجانب مافى هذه الحقيقة من آلام وغصص ، سويعات من السرور تبعث فى أعماق الوجدان الانسانى شعور بسعادة الخلود وعظمة الأبد ، وجمال الحرية ، وروعة اللانهاية . وكذلك امتد الربيع الى جوف الصيف ، فكانت الاشهر الجرداء المحترة فى أرض اغريقية من كل عام ، كأنها نفحة من نفحات الخريف الجميلة ، اذ تزدهر الطبيعة بما فيها من صور الحياة ، وكأنها تودع الوجود استعداداً لموت الشتاء الطويل ، ولكن الى حين

وعلى الرغم من ضعف البدن والتهدم الذى أصاب الفيلسوف العظيم بعدأن أربى على الثمانين من سنيه ، وقد ظهر أثره على الاخص فى ابتعاده عن القاء المحاضرات. فانه شعر فى ذلك العام بانتعاش جدد من أيام شيخوخته ، فاكب على التفكير والكتابة. والظاهر أن اعتدال الطقس وجودة الهواء ، قد جددت من قواه الحيوية والتفكيرية إلى درجة لم يكن يحلم بها افلاطون بعد أن بلغ مابلغ من العمر . فقد أخذ يعمل يوماً بعد يوم بهوادة وقوة فى انجاز كتابة ى « القوانين » مكباً على النظر فى ما اجتمع لديه من مادة وخبرة ، ليترك للاخلاف من بعده فى صورة كتاب شامل ، نتائج تأملاته الطويلة السديدة فى الطبيعة البشرية ومعنى الحياة

وكان يجمع فى بعض الاحايين تلاميذه من حوله ، ساعة فى قاعة محاضراته ، وأخري فى مكان فى حديقة الاكاديمى ظللته الاشجار الملتفة ، فيقرأ عليهم شيئاً من المقطوعات التى كتبها واختص بها حالات متباينة من حالات الحياة الانسانية . تلك

المقطوعات التى وضعها من بعد كمقدمات لبعض القوانين ، التى كان مكبا إذ ذاك على النظر فيها وتنقيحها . وبعد أن يتم قراءة هذه المقطوعات يصغى فى سكون وصمت للمناقشات التى تدور حول الموضوعات التى عرضها على تلاميذه ، ملاحظاً برضاء وحب ، الكلمات التى يتلفظ بها أحد التلاميذ ، ثم الفكرات التى يدلى بها آخر ، وقد أضاء حماس المناقشة وجوههم المحبوبة عنده ، بينما يكون الفيلسوف العظيم غارقا فى بحر من الذكريات يستعرض فيها الاجيال التى تتابعت من حوله وتلقت عنه فى هذا المكان عينه ، ثم غادرته لتأخذ نصيبها من حياة الكد والعمل . وقد يتصور فى حين من الاحيان مقدار مايستطيع أن ينفع هؤلاء الذين القوا بين يديه مستقبل أعمارهم فى الدنيا . فيخيل اليه أنه ضئيل تافه بجانب ماتلقى هو عن أستاذه سقراط . ثم يرجع بذاكرته إلى أيام صباه ، فيتخيل نفسه صبياً ثم فتى ، ينظر الى سقراط فى اسواق

> من كلمات سقراط الخالدة قوله : ( إن من يكون فى مستطاعه ان يحدث أقصى الشر ، كذلك يكون فى مستطاعه ان يحدث أقصى الخير ) . عن اقريطون

أ تينا نظرة كلها حب ، ثم يتخيل انه يناقشه أو يناقش غيره من الناس ، لافى هدوء الاكاديمى وجوها الصامت الحزين ، بل فى ميادين أثينا المزدحمة الصاخبة ، او بجوار « الجينازيوم » Jymnasium — محل الالعاب الرياضية — ومن ورائهم لفيف من الشبان استلقى بعضهم على الشعب طلباً للراحة وأخذ بعضهم يتمرنون تمريناتهم الرياضية فى نشاط وحركة دائمة تحت أشعة الشمس المحيية . ومن ثم يفكر « أهذه هى امثل طريقة ؟ ان تختلط بالناس وتكون بينهم فى وسط صخبهم ولغطهم وحركتهم ، وأن تشاركهم فى صخبهم هذا ، وان تتسقط من تناقشه منهم فى الروحات والجيئات . وقد أخذ بخناقهم كد العمل والسعى وتملكهم الجشع والطمع بما يحدوهم اليه الامل فى الحياة » ؟

فاذا استغرق افلاطون فى تأملاته هذه ، ورجعت به الذكريات الى الماضى بضعة عقود من الزمان ، كف تلاميذه عن المناقشة والكلام احتراما لصمته الرهيب المحبوب ، اذ يعتقدون أنه انما هو معهم بجسمه لابعقله . وأنه انفصل عن الحاضر والتحمت افكاره بالماضى البعيد . فاذا صرفهم من حوله بلطف ولين ، ترك مجلسه إلى مكان بعيد . غير مطروق من الحديقة التفت من حوله الاغصان عرف زمانا طويلا بعد موته بانه « مضطجع افلاطون »

وكثيراً ما كان يردد افلاطون كلما جاء الى هذا المكان ابيات صديقه سوفوكليس — Sophocles — فى احدى رواياته :

« هذه أرض مقدسة ، كساها الزيتون والغار والاعناب »

« وفى ظلالها الوارفة ، ارسلت الكراوين أنغامها الحزينة »

Holy ground is this, thick set
With olive, laurel,vine in whose deep shade,
The frequent nightingales make melody, -

* * *

| سئل افلاطون قبل ان يموت عما يكتب على قبره . فقال يكفى ان تكتبوا — ( افلاطون ) — وبعد الحاح من احد تلاميذه ؛ اوصى ان يكتب على قبره هذه الكلمات<br>( ايتها الارض ؛ ان كنت مخفية جسدافلاطون . فانك لاتستطيعين الدنو من نفسه التى لاتموت ) |
|---|



وكان قلما تأخذه سنة من النوم خلال الساعات الاولى من الظهيرة . بل كثير ما كان يتعذر عليه ان يدرك انه كان متيقظاً أم نائماً : فلقد كان يطير بخياله الخصب إلى اعماق الماضى البعيد ، حتى لينسى ماحوله ، ويستعصى عليه أن يدرك انه كان فى يقظة صحيحة ، أم هو فى حلم من الاحلام اللذيذة ، خلال سنة من سنات الكرى الهنية .

وكان إذ يضطجع فى ذلك المكان مسنداً ظهره الى جذع شجرة كبيرة ، يرى من خلال أغصان الزيتون الملتفة حصن « الاكروبوليس » (٢) Acropolis مشرفا بهامته المجيدة على بيوت أثينا ، وقد توجته الاقواس الكبرى القائمة من فوق أبوابه ما يمتد وراءه من الهياكل والمعابد ،فكان يلوح لافلاطون كانه مثال « الحق » فى ثباته وقوته وقد يمر بتصوره أن « الاكروبوليس »هو الشىء الوحيد فى اتينا الذى ظل كما كان منذ عهد فتوته فلم تعمل فيه يد الزمن ، ولم تغير منه طوارىء الحدثان .

---

(١) الاكروبوليس — قلعة قائمة على رأس تل بجوار أثينا ، يقال أنها أسست واختلت قبل أن يقو أى بناء منه فوق السهل الذى يكتنفها راجع القاموس الانشيكلوبيذ ص ٢٥ مجلد أول

1 Whitslaw's translation.

وعلى هذا التل وحده دون غيره ، وحتى قبل أن تبنى البروبيليا «١» Propylea وقبل أن يقوم هيكل أثينا كما كان يرى أفلاطون ، هبت نفحات ذلك الشعور النبيل الذى نظم من سرى الجند وبعث فيهم روح الشجاعة والالفة . تلك التى كانت ذات يوماً مثار ذلك الوحى القدسى الذى نزل على قلوب الآثينيين ، فالهمهم والقوة الصبر إذ كانوا يقاتلون فى سبيل الحرية . أولئك البرابرة الذين زحفوا عليهم من الشمال

أم ن ذلك كالوحى قوة استقرت فى قلوب أولاء من عظماء الرجال مثل بركليس الذى مات فى السنة التى ولد فيها أفلاطون أوسقراط استاذه ، أوغيرهما من الرجال الذين عاشوا فى أتينا من قبلهما ، واستطاعوا بتوقد أرواحهم أن يحيوا الموات من قلوب آل أثينا ؟

ooo

ثم تعود اليه ذكريات الماضى البعيد ، كقطع موسيقية ترن أصداؤها فى فضاء السنين «٢» وتعاوده معها ذكريات أصدقائه القدماء فى أثينا خلال العهد الاخير من الحرب العظمى ، وسقوط مدينتهم وذلك العصر البربرى الذى اختتم بقتل استاذه العظيم سقراط .. وكم كان يتصور بعد ذلك اليوم . كان قد مضى عليه أكثر من خمسين سنة اذ ذاك . ذلك اليوم الذى سمع فيه آخر الكلمات من فم سقراط حية متجددة فى ذاكرته . شكله وتعبيراته وحركاته ومشيته . كل هذه الاشياء ظلت بينة متحيزة فى مخيلته كما كانت يوم أن قضى سقراط آخر أيامه الدنيوية . . . ثم يستجمع نبرات صوته وتدرجاته قوة وضعفا خلال المناقشات . ونظراته الحادة التى يرسلها الضياء المنبعث من عينيه ، تلك النظرات التى كان يخيل الى من يراها أنها تستشف ماوراء الهيكل البشرى ليعرف أسرار النفس والروح

غير أنه مع كل هذا كان كلما يحاول أن يستخلص من ذكرياته شيئاً من أقوال سقراط أو تعاليمه فى أى موضوع من الموضوعات التى عالجها ، كان يشعر بأنه يتعذر

---

1 As a ripple of Music, singing across the space of years

(٢) البروبليا أو البروبيليوم Propylaeum رواق يكون أمام هيكل أو باب كبير . مدخل أى من الهيا كل الاغريقية أو باب كبير تمتد من حول جناحيه المبانى . ويدعى بهذا الاسم على الاخص مدخل لاكروبوليس فى أثينا والبروبيليوم هو آخر بناء فنى أقيم فى آخر عهد بركليس المعروف . راجع القاموس لانشيكلوبيدى ص ٨٨ مجلد ٥

عليه أن يفصل بينها و بين فكراته الذاتية ، أو يفرق بين تعابير سقراط وتعابيره .

* * *

فى اليوم الذي كتب فيه افلاطون آخر كلمة من كتاب القوانين شعر بأن حياته قد آن ختامها . شعر بأن حياته قد اكتملت كل معانى الألفة ، شعر بأنها كبناء كامل الألفة تام الاتساق ، وأنه لم يبق على بانيه الا أن يفارقه بعد طول اكبابه على بنائه . شعر بأن المدير الذى كان يدير ذلك الهيكل الكامل ، لم يبق فى حاجة الى تدبيره .

* * *

فى ذات مساء ، وقد اشتد الحر فى جوف الصيف ، و بعد يوم صرفه متعبا فى عرس أحد أصدقائه ، آوى الى حديقة الا كاديمى ، حيث كان من عادته أن يستريح فى ذلك المكان الصامت الحزين .

وجده تلاميذه كما لو كان نائما فى مضطجعه المعتاد . غير أنهم عند ما اقتربوا منه ليوقظوه ، لم يجدوا هنا لك من حاجة بقيت لافلاطون فوق الأرض . كانت روحه قد فارقت البدن الترابى . كانت قد زاولت الارض لتلتحق بالرفيق الأعلى ، ولتشرف من عليائها على « المناظر القدسية فى أغوار السموات » .

جمد تلاميذه كل فى مكانه هنيهة . وساد صمت رهيب يغشاه حزن خارج من من أعماق النفوس .

وبعد قليل ردد أحد التلاميذ أبياتاً من الشعر قالها افلاطون فى موت أحد أصدقائه ١ منذ زمان طويل ، غير أنها كانت أحكم ما يقال فى موته هو ، قال :

« لقد كنت بين الأحياء نجمة الصباح
« قبل أن يخبو ضوؤك الوضاح
« أما الآن ، و بعد أن مت ، فأنت كاسبيروس ٢ تحبو
« الاموات بفجاج جديدة من الضياء ٣ .

---

(1) Aster.

(٢) نجمة المساء . و فى الميثولوجيا ابن أو أخ أطلس - لزيادة الشرح راجع الانسيكلويدية البريطانية مجلد ١٣ ص ٤٠٨ الطبعه الحادية عشر

(3) " Thow wert the morning star among the living
Ere thy fair light had fled,
Now, having died, thow art as Hespenus giving
New splendour to the dead "

# فتوح العرب

## ملاحظات عامة بشأن الفتح الاسلامى فى سورية

— ١ —

### أسبابه ومميزاته

(١) الاسباب

إن فتوحات العرب فى سورية لم تكن بنت يومها . وانما كانت نتيجة عوامل فعالة . وقد بحث المؤرخون فيما عسى أن تكون تلك العوامل . فرأى بعضهم كل الأهمية فى عوامل لم ينتبه اليها غيرهم . ورأى مؤرخو العرب فى الدين السبب الأوحد لتلك الغزوات . هذا ولا يخفى على القارىء النبيه مايعانيه علماء التاريخ من الصعوبات فى تعيين أسباب الحوادث بالضبط ، فذلك من أصعب ما يرمى اليه المؤرخ . وليس ثمة من طريقة صحيحة لتعيين تلك الاسباب. على أن المؤرخين يعملون على ايجاد طريقة يمكن بها التوصل الى معرفتها

وقد نسب بعضهم نزوح العرب الى سورية الى أسباب اقتصادية فقالوا إن بلاد العرب كانت غنية وناجحة اقتصاديا . ثم طرأت عليها تغيرات جوية ومناخية فى العصر الجليدى . وسببت القحط الذى نحن بصدده (١) وصار العرب لا يستقرون على حال منذ فجر التاريخ يطردهم المحل والجوع من بلادهم إلى أن كان الفتح الاسلامى . وهو حركة متعلقة بتضعضع أحوال جزيرة العرب الاقتصادية (٢) وقد كان الأستاذ فنكلر (٣) الالمانى من أهم واضعى هذه النظرية ويتكلم عنها البرنس كيتانى كثيراً ويكتب الأب لامنس اليسوعى فصلا كاملا فيها فى كتابه « مهد الاسلام » ويأتى بأشعار فاه بها كثيرون من العرب ليؤيد نظريته (٤)

إننا لا ننكر أن بلاد العرب كانت توفد جماعات وشعوبا مختلفة بعضها تلو بعض إلى البلاد السورية العراقية . وان آخر نزوح قبل الفتح الاسلامى حدث فى القرن الثالث

---

(١) راجع كتاب « مهد الاسلام » للعلامة لامنس Lammens ج ١ ص ١٧٧

(٢) مهد الاسلام ص ١٧٤ . بكر Becker ص ٣٣١

(٣) كان هذا أستاذ اللغة الاشورية فى جامعة برلين

(٤) لقد كتب هذا البحث بمناسبة الجهود التى تبذل لايجاد الوطن الاصلى للعنصر السامى فى جزيرة العرب . ولهذا نورد هذه النظرية لزيادة الاطلاع اقرأ « مهد الاسلام » ج ١ ص ١١٣ — ١٢١

للميلاد ، فنتج منه دولتان تحالفت احداهما مع مملكة الفرس والثانية مع امبراطورية البيزنطيين، وهما دولتهما الحيرة وغسان ١ ولكن ماهى البراهين المناخية والجيولوجية التى استند اليها أصحاب هذا الرأى ليثبتوا وقوع القحط ، وماهى الامكنة التى كان فيها ذلك القحط أشد وطأة وكيف يمكن تطبيق نظرية كهذه على بلاد لم تدرس درساً جيولوجيا مناخيا مدققاً حتى الآن ؟ تلك اسئلة ربما لايقدر أصحاب هذه النظرية أن يجيبوا عليها . والبراهين من الشعر ضئيلة لايوثق بها ، فاذا فرضنا أن تلك الأشعار التى فيها تنويه إلى السبب الاقتصادى قد قيلت فى زمن تلك الحوادث ، فما هى نسبة عددها إلى عدد الاشعار الأخرى المعاصرة والتى لاتأتى على ذكر ذلك السبب . لذلك نرى أن هذه النظرية لايعتمد عليها كسبب فعال للفتح ولا يمكننا أن نعدها إلا مجرد فكرة ، إلى أن يأتينا أصحابها ببراهين أقطع وأوضح .

ومن الأسباب الفعالة لنزوح العرب حروب الردة ٢ . وبيان ذلك انه لما اتحدت جزيرة العرب كلها تحت راية الاسلام وقامت وحدة الدولة مقام وحدة العشيرة ،وجد العرب أنفسهم غيرقادرين على غزو بعضهم خصوصاً وقد اجتهد محمد (صلعم) أن يقيد حرية الغزو بينهم ٣. ولما كان الغزو عند العرب هو الوسيلة الرئيسية لتوزيع الثروة ، ولما كان العرب من طبيعتهم يميلون الى الغزو وما يتبعه من الامجاد والأسلاب الحربية ٤ ويودون لو يدبروا منصرفا لقوتهم الحربية ، لذلك أجبروا على أن يغزو البلاد المجاورة على الحدود السورية .

زد على ذلك أن كثيراً من العربان الذين أخضعهم سيف الاسلام كانوا يسكنون قرب الحدود السورية وكان لهم مع جيرانهم سكان الامبراطورية البيزنطية مخاصمات ومشاغبات ، فورثت الدولة الاسلامية تلك المخاصمات . وصارت منذ ذلك الحين تقود حملات غزو ضد العدو على الجانب الآخر من الحدود . هذا ولما كان من نتيجة حروب الردة فى جزيرة العرب أيضا أن تصادم المسلمون مع

---

(١) نكلسن ص٣٣ ، بكر ص ٣٣١ ، الخلافة ( مقالة لدى غويى فى دائرة المعارف البريطانية ج ٥ ص٢٤ )

(٢) لم تكن هذه الحروب حروب ردة بكل معنى الكلمة لانها « ا » لم تكن ضد مرتدين بل بعضها كانت ضد عرب لم يعتنقوا الاسلام من قبل « ب » ان الذين ثاروا وحوربوا لم تكن ثورتهم ضد الاسلام كاسلام ، بل ضد الضرائب التى وجب عليهم دفعها . فالكلمة « ردة » هى تفسير وضع مؤخراً : راجع بكر ص ٣٣٤ )

(٣) مذكرة دى غويى ص ٤

(٤) القرآن « وتأليف القلوب » راجع لامنس ج ١ ص ١٧٥

قبائل جوالة خاضعة لدولتى الحيرة وغسان ١ ، ولما كان مرمى الاسلام أن يبسط سلطته على كل العرب حسب قول البعض ٢ ؛ فقد وجدت الدولة الاسلامية نفسها مشتبكة فى حرب مع دولتى الحيرة وغسان، وبالتالى مع المدائن وبيزنطية. ويقول بعضهم شيئاً عن الاحترام الذى قوبلت به انتصارات المسلمين فى جزيرة العرب من قبل السوريين كعامل للفتح ٣ ويدعى غيرهم أن غزوة سورية كانت ترهيباً أو حيلة عسكرية من قبل العرب بعد حروب الردة ٤ وعلى كل فانه يمكننا اعتبار حروب الردة كسبب للفتح

وقد قيل أن الحركة الدينية فى جزيرة العرب صادفت حركة قومية كبرى بين العرب عموما بحيث أنهم شعروا بتفوق قومى وباشتياق لاخضاع البلاد المجاورة وبالاختصار فانها كانت روح الوطنيين ضد الأجانب داخل بلاد العرب وخارجها ٥ وقد فعل الاسلام بتقوية ذلك التفاخر القومى داخل بلاد العرب . لذلك لا يمكننا إغفال ما للقومية من أثر فى الفتح العربى الاسلامى

إن عدداً ممن كتبوا فى هذه الموضوعات من الاجانب ٦ لا يؤدون للديانة حقها من القوة فى دفع العرب خارج جزيرتهم ، وانهم لمصيبون فى ذلك نوعاً . على أنه وان كان من الخطأ المحض أن ننظر الى نزوح العرب من جزيرتهم كحركة دينية فقط ، فانه لمن الخطأ أيضاً أن نجهل ما للدين من أهمية فى تسبيب الفتوح . والذين يغفلون تأثير الدين فى هذه المناسبة يعتمدون فى برهانهم على عدم اجبار الشعوب المغلوبة على ترك دياناتهم اذا هم دفعوا الجزية . وأن تغيير دينهم لم يكن مرغوباً فيه. لأن الدخل المادى من الجزية يبطل بذلك ، فهم يقولون بالاختصار ان المسلمين لم يجاهدوا لاجبار غيرهم على اعتناق دينهم ، وكانوا يكرهون انتقال غير المسلمين الى دين الاسلام ٧ . اننا لا ننكر أن العرب الفاتحين كانوا يخيرون أعداءهم فى ثلاثة أمور هى اعتناق الدين الاسلامى أو دفع الجزية أو الحرب . ولكنك ترى أنهم كانوا يضعون الجزية فى المقام الثانى

---

(١) تاريخ الاسلام للامير سيد على ص ٢٤

(٢) الخلافة دى غوبى ص ٢٤

(٣) بكر ص ٣٣٦

(٤) مهد الاسلام ص ١٧٧

(٥) مقاله بيفن Bevan عن « محمد والاسلام » فى تاريخ العصور الوسطى ج ٢ ص ٣٢٨

(٦) وخصوصاً بكر فى الفصل الحادى عشر من تاريخ كبردج للعصور الوسطى ج ٢ ، ولامنس فى « مهد الاسلام » ١٤٧ — ١٧٤

(٧) بكر ص ٣٣٠

وتغيير الدين فى المقام الأول ، وأن ذلك مذكور فى القرآن الكريم (١) . وهم مأمورون به فذلك لايدل على أن دعوتهم لم تكن الى الدين . وعلى كل فاننا نعلم أن النصارى وان دفعوا الجزية كانوا يحرمون من امتيازات كثيرة و يرهقون بشروط عديدة وكان عليهم أن لايمنعوا أحداً من أقاربهم إذا أراد الدخول فى الاسلام ، كما سنذكر فى شروط تسليم دمشق ؛ وهذا مايبرهن أن نشر الدين الاسلامى كان من أهم البواعث على الفتح

وأما كراهية المسلمين دخول الناس فى دينهم فذلك أمر لسنا متأكدين من وقوعه. وإذا وقعت حادثة أو اثنتان من هذا النوع فذلك لا يخولنا الحق بان نجزم بعدم تأثير الدعوة الاسلامية فى تسبيب الفتح . لذلك لا يحق لنا أن ننكر ما الاسلام من قوة فى ذلك الموقف . على أن أهميته تقع فى طبيعته السياسية ، لأن الديانة والدولة الاسلاميتين كانتا شيئاً واحداً ، ولم يعتم الاسلام أن اصطبغ بالصبغة القومية العربية وصار السعى وراء التوسع حثيثاً (٢)

٢ — المميزات : هل كان للنبى أو لخلفائه خطة واضحة لاستعمار البلاد المجاورة وإدخالها تحت راية الاسلام وبناء مملكة كبيرة يحكمها عمال من المدينة ؟ وهل كان فتح سورية نتيجة أعمال تلك الخطط ؟ تلك أسئلة ما زالت تشغل أفكار بعض الباحثين . وقد لايتردد معظم مؤرخى العرب فى قولهم أن أبا بكر بعد ماتم له ماأراد من استتباب الأمن فى جزيرة العرب أراد فتح سورية ، التى حلم النبى من مدة فى فتحها حسب قول الواقدى ، و بعد ما استنفر الناس للجهاد وحضرت الجيوش أرسلها الى البلدان المجاورة معيناً لكل منها قائداً ومسمياً له منطقة نفوذه وأعماله (٣)

على أن أكثر المستعربين من علماء المشرقيات يتساءلون فى صحة ذلك ويودون عدم قبوله . فيقول الأب لامنس أن النبي نفسه توفى بدون أن ينظر الى ماوراء حدود بلاد العرب وأن ما أرسله الى شمالى الحجاز من الحملات كان يكفى لاخماد

---

(١) القرآن سورة التوبة آية ٢٩ قاتلوا المشركين من أهل الكتاب . . . حتى يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

« العصور » أصل النص الكريم كالآتى : ( قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

(٢) ان هذه المشابهة بين الدولة والديانة فى الاسلام ربما قادت بكر وغيره الى اغفال أهمية الديانة كديانة فى تسبيب الفتح

(٣) راجع الواقدى ج ١ ص ٢ و٣ ، الطبرى ٢٠٧٨ — ٢٠٧٩ ، البلاذرى ١٠٧ ، اليعقوبى ج ٢ ، ١٤٩ ، ابن الاثير ج ٢ ، ١٥٤ ، دحلان ج ١ ، ٢١

تعطش العرب الى الغزو (١) . اما وقد أرسل الرسول حملة وصلت مؤتة (٢) (عام ٦٢٨ : ٦٢٩ ) فذلك أمر لا تنكره (٣) ولكن ذلك لم يكن بقصد الفتح غالباً بل كاحتجاج ضد دولة الغساسنة ، حيث قتل رسوله الحارث بن عمير الطائى الذى حمل رسالة منه الى جبلة بن الأيهم يدعوه فيها الى الاسلام (٤) .

ونرى « بطلر » من الجهة الثانية يقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم حلم ببناء مملكة كبيرة بعد فتح مكة (٥) فجهز جيشاً لجباً ضد فلسطين ولكنه لم يتجاوز فى حملته حدود تبوك «٦» ، وانه لممكن أن يكون النبي قد حلم ببناء دولة كبيرة ولكنه وجد من الحكمة أن يتراجع عن هذه الفكرة حينما رأى بعينه سقوط مشروعه لأول مرة . أما حملة اسامة بن زيد «٧» التى نظمها قبل مماته فانها عنيت أن تكون غزوة بسيطة لم يمكنه رفضها وذلك لأن عسكره لم يكونوا ليصبروا على الجمود الذى أصابهم منذ يوم تبوك٧ . وقد يجوز أن مافاه به الرسول من الأحاديث التى يأخذها بعضهم كشاهد على وجود فكرة بناء المملكة فى مخيلته ، قد قيلت قبل أن يتحقق فشله فى حملة تبوك وغيرها ٨ .

وقد مثل الخليفتان أبو بكر وعمر ترددات الرسول ، واذ كانوا قد تداخلوا فى أمر تلك الغزوات ، فذلك لأنهم أرادوا بذلك أن يمنعوا استفحال أمرها واتساع نطاقها ولكن طموح البدو وقوادهم غلب على تردد الخليفتين وهكذا جرتهم الحوادث الى ما كانوا لايتوقعونه . وقد حدث أن تلك الغزوات صادفت نجاحاً . ولما غلب العرب على أمرهم أجبر الخلفاء على طلب الانتقام وبعث النجدات إلى أن أوجدت الانتصارات النهائية فكرة الفتح التى كانت مختمرة بادىء بدء ٩ . وقال بعضهم إن القبائل

---

١ مهد الاسلام ج ١ ، ١٧٦
٢ مؤتة قرية على حدود البلقاد وشرق طرف البحر الميت الجنوبى
٣ راجع بشأن هذه الحملة ابن هشام ج ١ ص ، ٢٠٣ الخ
٤ لقد أرسل محمد ( حول عام ٧ ، ٦٢٨ ) رسلا الى ملوك الشرق يدعون الى الاسلام وقد أرسل فيمن أرسل دحية بن خليفه الى هرقل
٥ بطلر : فتوح مصر ص١٤٥
٦ هى مدينة تبعد عن المدينة المنورة ٣٠٠ ميلا شمالا وكانت الحملة فى رجب عام ٩ : ٦٣٠ ومن هناك وقع المسلمون معاهدة مع يوحنا حاكم ايلا « العقبة » راجع الطبرى ج ٤ ص ١٦٩٢ - ١٧٠٥
٧ هو ابن زيد بن حارثة الذى تبناه الرسول والذى مات مع اخرين فى مؤتة مهد الاسلام ص ١٧٦
٨ مهد الاسلام ص ١٧٦
٩ مهد الاسلام ص ١٧٧

العربية كانت تغزو سورية البيزنطية قبل الاسلام، ولكن غزواتها اتخذت شكلا آخر وكثرت بعد أن ضمتها كلمة الاسلام وضعفت كلمة بيزنطية، وأخيراً صارت بشكل فتح منظم .

إننا لا نجد ما يمنع قبول هذه الآراء، ونحن لا يجب أن نقبل كل ما تقوله تواريخ الاسلام بهذا الصدد لأن معظم تلك التواريخ التى كتبها قوم من المسلمين لا يصح أن تتخذ أساساً تاريخياً لشيوع الديانة الاسلامية . لذلك يجب أن نعترف أنه لم يكن للمسلمين إبان الفتوح خطة ثابتة واضحة مبنية على المذاكرة والمداولة فى المدينة إلى أن كانت انتصاراتهم مكفولة وفاصلة، وأن غزواتهم وهجماتهم أتخذت شكل غزوات سببها حب الحرب والسلب والشعور ببعثة إلهية حتى ذلك الوقت . هذا ما يجب أن نعتقده إلى أن نجد براهين أثبت واقطع . وسنرجع إلى هذا الموضوع فيما يلى، ولنكتفى الآن بدرس القسم الأول من الفتوح مع حفظ هذه الكلمات والنظريات كمرشدات فى الدرس .

## ٢ — لماذا انتصر العرب فى فتوحاتهم

يقول العلامة بكر ناقلا عن تيوفانس ما معناه: « ان ما دفع بالجيوش الاسلامية الى سورية لم يكن بعد نظر الخلفاء ليسيطروا على العالم وانما الدعوة التى طلبت بها قبائل العرب المتنصرة على الحدود السورية المساعدة من حكومة المدينة »[١] قد يكون قول تيوفانس هذا ناتجا عن كونه بيزنطيا، وبالتالى مشتاقا الى الحط من عظمة شأن المسلمين الفاتحين . وعلى كل يجب أن ندرس أحوال سورية لنرى اذا كان فى هذه الرواية شيئاً من الصواب، ولنحدد درسنا حول أسرار نجاح الفتح الاسلامى العربى كما نراها فى أحوال سورية فى تلك الآونة

لقد نصب هرقل امبراطوراً عام ٦١٠ م وبعد مرور أربع سنوات من تاريخ تنصيبه غزا الفرس سورية ودارت رحى الحرب بينهم وبين البيزنطيين سجالا حتى سنة ٦٢٨ حين تم لهرقل طردهم من بلاده[٢] . على ان الحرب كلفته مبالغ طائلة أدت الى خراب خزينته[٣] . فجرب أن يسد العجز بجباية الضرائب الكثيرة من رعاياه وايقاف دفع الكميات التى كانت تعطى سنويا لقبائل قضاعة وجذم وهم عرب

---

(١) بكر ص ٣٣٩

(٢) بطلر « فتوح مصر » ص ١٥٤

(٣) تاريخ العرب لكليمن هوار Clément Huart ج ١ ص ٢٣٣، بكر ص ٣٤٥

الحدود الذين كانوا يذودون عن طريق غزة ١ . وقد كانت نتيجة هذا أن كره العرب النصارى الحكم البيزنطى .

وتستحق سياسة البيزنطيين الكنسية الذكر بهذه المناسبة . لما تم لهرقل النصر على الفرس ، ذهب إلى اديسا ( اورفه ) ، وهى مركز القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة ٢ ليمهد السبيل الى الوحدة الدينية المسيحية . ولكن عدم نجاحه فى حمل السوريين على اعتناق مذهب المشيئة الواحدة أو مذهب القائلين بأن للمسيح مشيئة واحدة فى طبيعتيه ٣ ، أدى الى اضطهادهم بسبب تمسكهم بآرائهم فى الطبيعة الواحدة . وظل السوريون يشتكون سوء المعاملة حتى أنقذهم إله الانتقام من أيدى البيزنطيين .

وقد قال بطلر فى هذا الصدد « إن مشروع الاتحاد الكنسى أدى الى خراب هرقل ٤ . زد إلى ذلك ان الامبراطور أمر بذبح اليهود قبل الفتح العربى تماماً فهرب كثيرون منهم الى ما وراء الاردن وما يليه من الصحارى . وهناك بعد المخابرات انخرطوا فى سلك الجيوش الاسلامية وصاروا يعملون كمستشارين فى طول البلاد وعرضها ٥

ويزعم البعض بأن الصلة القومية بين العرب السوريين واخوانهم فى الصحراء كانت العامل الأكبر فى نجاح الاسلام . واستقبلت القبائل السورية العربية تلك الصلة الجديدة بكل فرح،وكان عملهم نتيجة قيام العنصر السامى ضد الحكم البيزنطى الاجنبى ٦ وقدقوته الاحوال الدينية والمالية .

قد قيل إن هرقل ورجال الدولة حوله لم يتحقق الخطر من الاسلام وبينما كان زائراً فى بيت المقدس اتى المسلمون الى مؤتة « ليبدأوا مع البيزنطيين سلسلة حروب انتهت



---

(١) بكر ، ٣٤٠ ، والكية التى كانت تدفع لهم نحو ٣٠ جنيهاً ذهباً . مذكرة دى غوبى ص ٢٩

(٢) Mone physixes وهم فئة من الكنيسه المسيحية يعتقدون بطبيعة واحدة للمسيح ويرون المذهب الذى وضعه مجمع خلقيدونيه Calcedon (عام ٤٥١م) الذى قالبطبيعتين ، واحدة الهية وأخرى بشرية للمسيح خطأ، وسمى أصحاب هذا الرأى الذين أدار كنيستهم يعقوب بردای - السروجى - ( توفى عام ٥٧٨ م ) اليعاقبة

(٣) وهم مع كونهم مستقيمى الرأى يقولون بأن للمسيح إرادة واحدة وذلك حلا لمسألة وحدة شخص المسيح التى أتى بها أصحابها ولكن بناء على مذهب الطبيعتين، ويقال لهذا الرأى Mono theletism راجع بشأن المذهبين دائرة المعارف للديانة والفلسفة الادبية مقال كروجر Kruger فى المجلد الثامن

(٤) بطلر ١٥٨ - ٥٩ ، بكر ٣٤٠

(٥) بطلر ، ١٥٩

(٦) بطلر ، ١٥٠ ، بكر ، ٣٤٠

بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، ١ على أن جيوشه قهرت الغزاة بسهولة ٢ ولكن العرب لم يفقدوا شجاعتهم وغزوا غزوات أخرى: فقد قاد النبى صلى الله عليه وسلم حملة مؤلفة من ٣٠٫٠٠٠ جندى الى تبوك ومن هناك ذهب خالد بن الوليد وافتتح دومة الجندل وأسر حاكمها المسيحى ٣ ولم تصادف حملة تبوك نجاحاً باهراً ولكنها أوجدت علاقات ودية مع عرب جنوبى فلسطين ٤ وكان المسيحيون من عربان سورية داخل الحدود وخارجها مستعدين أن يضربوا بسيوفهم حيثما تقتضى المنفعة ٥ وذلك ليعوضوا عن الخسائر التى الزمهم اياها البيزنطيون ، وقد قيل إن جيش مؤتة كان فيه جماعة من العربان المسيحيين

وعلى كل فان هذه الظروف وهى الارهاق والخسائر المالية و الاضطهاد الدينى والصلة القومية مع الأمل فى النهب كانت عوامل مهمة فى نجاح الفتح الاسلامى وفى تشجيع العرب المسيحيين أن يدخلوا جيوش الاسلام متى سنحت الفرص ، وقد برهن على مساعدة هؤلاء للاسلام ماسنراه من أن المدن البيزنطية البحتة قاومت العرب الفاتحين مدة أطول من المدن التى كان فيها عنصر عربى أو سامى كبير ٦ ولنا فى تنويهات كتاب العرب الى مساعدة بعض الرهبان مثل على ذلك .

ويضيف السير «ميور» عاملا آخر فى نجاح المسلمين فقد قال ان البيزنطيين لم يعملوا جهدهم فى حربهم ضد العرب لان البلاد مع كونها جميلة ومقدسة فانها كانت مقاطعة بعيدة ٧ على أنه هو الكاتب الوحيد الذى يذكر هذا على مانعلم ، وأننا نعرف من مصادر أخرى أن البزنطيين تركوا البلاد بعد الجهد الجهيد و بألم كثير ، ولذلك لايمكننا الاعتماد على عبارته هذه .

وهنالك سبب آخر لنجاح المسلمين لايجب إغفاله وهو أن المسلمين أو قسماً كبيراً منهم كانوا يحاربون لاجل دعوة وكانوا على يقين من أنهم اذا لم يصيبوا ربحاً عاجلا فى هذه الحياة الدنيا فان أجرهم سيكون عظيماً اذا ماتوا وهم يحاربون فى سبيل الله وأنهم سيكافأون بجنات عدن يسكنونها .

---

«١» بطلر ١٤٤

«٢» يقول مؤرخونا ان قواد العرب كانت ٣٠٠٠ محارب وجيش بيزنطية مئة ألف مقاتل على أن فى هذ مبالغة . راجع ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٣

«٣» واسمه أكيدر بن عبد الملك والقرية بين المدينة ودمشق فى واحة جوف السرحان فى شمالى بلاد العرب أنظر معجم البلدان لياقوت

«٤» بكر ، ٣٤٠

«٥» بطلر ، ١٥٦

«٦» بكر ، ٣٤٥

«٧» ميور : أخبار أيام الخلافة الاولى ص ١٤٤

# القرن العاشر الميلادى

## ١ ــ مذاهب أربعة

فى القرون الأولى ، وفى بداية المدنية الانسانية الحديثة ، قامت مذاهب أربعة . ثلاثة منها كانت على باطل، ومذهب واحد كان على صواب ، ولا جرم أن ثلاثة المذاهب الاولى ، كان لها الأثر الأول فى دمغ الفكر الانسانى بطابع معين ، قعد بنشوء الافكار الحرة قروناً طوالا

أما المذاهب الثلاثة الاولى وهى المذاهب الباطلة فهى :

أولا ــ المذهب « الجيوسنتيرى » Jeocentric وهو المذهب الذى كان يعتقد أهله بنظام عالمى تستقر الارض فى وسطه . فكان المعتقد أن الارض فى وسط النظام الكونى، وأن كل السيارات ومعها الشمس إنما يدرن من حولها ؛ وأن الارض ليست محور نظام جزئى ، بل هى مركز النظام فى مجموعه بما فيه المجرات العظيمة والسدام الكبيرة كسدام الجبار والمرأة المسلسلة وغيرهما ، على خروج هذه النظم عن حدود نظامنا هذا بما لايقدر إلا بآلاف السنين النورية

ثانياً ــ المذهب « الايجوسنتيرى » Egocentric وهو المذهب الذى كان يعتقد أهله بأن النفس الانسانية أو الذات البشرية ، هى المرجع والمآل من خلق العالم ، وأن الانسان كائن مختار من الله وأنه أفضل جميع المخلوقات بأنواعها من جماد ونبات وحيوان ، وأن تكوينه أشرف التكاوين ، وأن روحه مستمدة من روح الله وأنه مصنوع على هيأة الله .

ثالثاً ــ المذهب « الثيوسنتيرى » Theocentric وهو المذهب الذى كان يعتقد أهله أن اللاهوت أساس العلم الانسانى ، وأن تفسير كل مافى الكون من الاسرار يجب أن لايتعدى حدود التفاسير التى فسر بها أقطاب الكنيسة الكتب المقدسة ، وعلى رأسهم البابا المعصوم عن كل خطأ المبرأ عن كل زلل . ظل الله فوق الارض ، ووكيل الله فى تصريف حالات العالم الانسانى .

وهذه المذاهب الثلاثة باطلة . فالمذهب الاول أبطله غاليلو العظيم باستكشافه أن

الأرض تدور من حول الشمس ، وأن النظام الشمسى من أضأل النظم الفلكية التى يحتويها الكون اللامتناهى . والمذهب الثانى أبطله العلم النشوئى ، إذ أظهر العلماء أن الانسان حيوان ارتقى على مدى الازمان ، ومنهم من يشرفه فيجعله من سلالة صورة من صور البريمات انقرضت ، وأنها تمت بأقرب الصلة الى القرود العليا ، ومنهم من يرده إلى حيوان أدنى من ذلك ، أى الى « الترسيوس » — Tarsier كما يقول العلامة « أوزبورن » . والمذهب الثالث نقضه العلم الاستقرائى الحديث ، بعد أن ظهر للناس أن الحياة آية أرضية وأن العمل والانتاج والسعى وراء الرزق أول ما يجب أن ينصرف له الانسان ، وأن الحضارة لن تقوم على المذاهب اللاهوتية ـ الثيولوجية ـ الخلافية ، وإنما تقوم على حرية الفكر والقدرة على الاختراع ، وامكان استخدام القوى الطبيعية لفائدة الانسان

أما المذهب الصحيح فهو :

رابعاً — المذهب « الهليوسنتيرى » — Heliocentric — وهو المذهب الذى نقض به غاليليو المذهب « الجيوسنتيرى » إذ أثبت أن الشمس مركز النظام الشمسى وأن النظام الشمسى واحد من ملايين النظم التى يتكون منها الكون الاوسع .



## ٢ — شكوك أربعة

بعد أن نقضت المذاهب الثلاثة الاولى ، وثبت المذهب الرابع على أساس على لا يأتيه الباطل من حيث سلكت اليه ، استبان للعلماء والمشتغلين بعلم الفلك منهم على الاخص ، انه يكاد يكون من المستحيل ، واذا تساموا قالوا إنه يكاد يكون من المتعذر ، ان يبلغ الفكر الانسانى المحدود الى فتح مغاليق الكون والوقوف على أسراره . فان وحدة هذا الكون قد تبلغ من الاتساع والعظمة مبلغا لا يمكن لعقل تصوره . وقد تبلغ تراكيبه العنصرية من التشابك والاختلاف مبلغا يتعذر على التجاريب اكتناه ما فيها من الاسرار والحقائق. بجانب هذه الحقيقة الاحتمالية حقيقة أخرى جلية واضحة . هى اننا تقدمنا علميا على أهل القرون الاولى ، من الناحيتين النظرية والعلمية . ولقد غزى الشك نواح من الفكر الانسانى كان يظن فى القرون الوسطى أن كلمة الفصل فيها قد قالها أهل اللاهوت وأساطين الكنيسة . أما هذا الشك فقد تحيز فى أربع صور رئيسية تفرعت منها شجرة الشك الكبرى التى نرى ثمارها اليوم عالقة بفروع كل نبتة من نبتات المعرفة الحديثة .

## الشك الأول

تناول خلق العالم إذ كان التصور أن الدنيا صيدت كما تصاد سمكة من بحر العماء، وان الذى اصطادها طائر أو حيوان من الحيوانات القارضة. وهنالك تصور شعرى آخر تعتقد به قبائل «الماوورى»، محصله أن الارض والسماء كانتا «عروسين»، ثم افترقتا إلى الأبد بفعل قوة كانت متأصلة فيهما، وأنهما حتى الآن يتحسران على هذا الفراق ويرسلان الدمع فى صورة ندى الليل وضباب الصباح (١) وهذه الأشياء جديرة بالعقل الانسانى فى بدائيته وفى غرارته الأولى. فلما ارتقى الفكر وغزاه الشك واتسعت المعارف، لم يصبح بنا من حاجة لان نفكر فى الكون على أساس هذه الخيالات.

## الشك الثانى

تناول الفكرة فى إله مضى يصارع المادة «العاصية» محاولا أن يرد «العماء» Chaos إلى نظام. ويرجع تاريخ هذه الفكرة إلى تلك الازمان التى جهد الانسان فيها لكى يخضع «الأرض» لحاجاته وضروراته. أما الشك فقد غزى العقل فى هذه المسألة من ناحية أن المادة ليست «عاصية»، بل هى تحتاج إلى علاج. وأنها ليست فى عماء، بل هى سداها النظام. لهذا تبادر إلى العقل أن «إلها» لا يستطيع أن «يعالج» مثل هذا الأشكال البسيط، لا يمكن أن يكون إلها على اطلاق القول

## الشك الثالث

تناول الفكرة فى أن الكون انما خلق من أجل الانسان وحده ومن أجل منفعته المطلقة. ففى ذلك الزمان الذى اعتقد فيه الانسان أن كل النظام الكونى هو عبارة عن هذه الأرض «المسطوحة»، وأن السماء ليست سوى وعاء مقلوباً من فوقها، وان الكواكب عبارة عن «ثقوب» يطل منها الله على أهل الأرض أثناء الليل، كان من الضرورى أن يعتقد الانسان، وهو النوع الغالب فوق الأرض، إن هذا النظام لم يخلق إلا من أجله. أما بعد أن تراجعت الارض الى الوراء وأصبحت فى نظام الكون أشبه بذرة ميكروسكوبية بجانب جبال الخلايا العظيمة، وأنها سيار صغير جهد الصغر من ضمن سيارات أخرى تدور من حول الشمس، بدأ الانسان يحقق قيمته الصحيحة بازاء الكون

---

(١) أن السموات والارض: كانتا رتقا ففتقناهما

## الشك الرابع

تناول الفكرة فى أن خطيئة الانسان الاولى كانت سبباً فى تعديل يتناول اساس النظام الاصلى كما تحيز فى فكر الله ، وأن « خلاصه » لايزال شغل الله الشاغل . على أن هذه الفكرة لدليل قوى على ضعف الارادة الانسانية . فاذا كان لها من فائدة لنا فهى هذه ، أما من الناحية الاخرى ، فانها تظهر لنا ان صانع الكون « إله » يناقض نفسه ، فى حين انها تبالغ فى قيمة الانسان وموضعه من نظام الاشياء .

## ٣ — عصر الايمان

اذا وعيت هذه المذاهب الاربعة وهذه الشكوك الاربعة ، وقارنت بينها ، استطعت على وجه التقريب ان تتصور شيئاً من حقيقة الفكرة التى قامت فى عقول الناس خلال القرون الوسطى ، تلك الفكرة التى لم ينقذ الناس من ظلماتها الا حادث بسيط يتكرر كل يوم ، هو بزوغ شمس اليوم الاول من شهر ينايرسنة ١٠٠١ من التاريخ الميلادى . فقد شاع الاعتقاد فى ذلك الزمان ان القرن العاشر الميلادى هو آخر الدنيا وأن الساعة سوف تقوم فى نهاية اليوم الاخير من شهر ديسمبر سنة الف من الميلاد ، وأنه فى ذلك اليوم سوف يعود « عيسى » من السماء الى الارض ، ليحكم بين الناس ، الاموات منهم والاحياء ، « ويقرر مصيرهم » . ولقد قوى هذا الاعتقاد وزاد فى النفوس ثباتاً بما كان يحدث من القحط الشديد وانتشار الاوبئة التى كان يتكرر حدوثها بين آن وآن ، والتى كان يزعم أهل اللاهوت انها نذر تنذر الناس باقتراب الساعة وفناء العالم

ولقد هبت على العالم النصرانى ، وعلى الاخص فى أوروبا ، عاصفة من الخبال اللاهوتى أو الجنون الدينى ، اكتسحتها وامتدت الى كل ارجائها . ولقد تدفقت سيول المهاجرين الى كل الاماكن المقدسة التى كانت منتشرة فى انحاء العالم النصرانى ، فتفشت فيهم الامراض وأثقلتهم المتاعب ، فكان منهم من يموت فى الطريق ومنهم من يصل الى مقصده متعباً منهوكاً جسما وعقلا ، مريض النفس خائر القوى ، بل كثيراً من مات منهم تحت الاقدام على ابواب الأماكن المقدسة وقد تزاحمت عليها زمر المسوقين اليها بدافع المعتقد الباطل

وكنت ترى هنا وهناك جموعا تعرت من ثيابها وركعت صفوفا على جانبي الطرق ليمر بهم حملة السياط ، يضربونهم بسياط من الجلد المعقد تقطر من دمائهم ، مرددين باصوات عالية كلمتهم المعروفة : اقتربت الساعة Dies irae: dies irae

## ٤ ـ الليلة الاخيرة

ولاجرم أن العالم النصرانى فى ذلك الحين كان مغموراً فى ذلك الشعور العميق ، شعور اقتراب الساعة وموقف الحساب الاخير « يوم تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها » وظل الناس ينتظرون زلزلة الساعة و « إن زلزلة الساعة شيء عظيم »

واقتربت الساعة عند منتصف الليل من اليوم الاخير من شهر ديسمبر سنة الف بعد الميلاد . فاذا النسمات تهب بليلة عليلة ، واذا السماء ترسل أضواءها الخالدة ، واذا السيارات تسبح فى أفلاكها ،واذا الساعة تمر على الارض كما مرت من قبل منذ ملايين كثيرة من السنين . ثم تمر الساعة المنتظرة فلا زلزلة ولا اضطراب . وتمر الساعات متتالية ، واذا الفجر يطلع وإذا الصبح يتنفس واذا الشمس تشرق كما أشرقت على الارض منذ أن مر بجوارها ذلك النجم الضال الكبير الذى يتخيله السير « جينز » ماراً خارج فلك «نبتون» ، واليوم بالضرورة خارج فلك « إيكاروس » فاجتذب من سديم الشمس « ذراعاً » امتد اليه وأخذ يدور من حول الشمس ثم تكاثف حول مراكز معينة فكانت السيارات ، ثم اختفى « النجم الضال » فى أغوار الفضاء السحيقة ، قبل أن يجتذب اليه بقية ما امتد اليه من « ذراع » الشمس السديمية .



وشعر الناس بحقائق الحياة . شعروا بالجوع والعطش،فأكلوا وشربوا ، وشعروا بالتعب فناموا ، وشعروا بضرورة السعى من أجل الحياة فسعوا فى مناكبها .

هذا الحد الفاصل كان نهاية الفكرة اللاهوتية لابسة أخبث صورها الخيالية وأول عهد الانسان باستيقاظ الفكر من خمول القرون الاولى، منذ ظهور أول، رسول من رسل النصرانيه فى الغرب .

# اصل الانسان

## والانتخاب الزوجى

تأليف العلامة شارلز روبرت داروين

ونقله الى العربية : اسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور ومحررها

مقدمة للمترجم ستنشر مع هذا الكتاب الذى سوف يقدم للطبع قريبا

إن فى نقل كتاب « أصل الانسان » إلى اللغة العربية ، وعلى الاخص بعد أن فرغت من ترجمة كتاب « أصل الأنواع (١) لمجالا للتساؤل عن السبب الذى ساقنى إلى نقل هذين الكتابين إلى اللغة العربية ؟ وعندى أن المنزلة التى تنزلها كتب « داروين » فى العالم الغربى ، ليست مبرراً كافياً يبرر نقل أشهر كتابين له إلى العربية . فقد تكون المبادىء التى بنى عليها داروين آراءه فى « أصل الأنواع » و « أصل الانسان » قد نقضت الآن ، وقد تكون المقدمات التى بنى عليها استنتاجاته ، كما قد يتفق أن تكون المشاهدات التى استمد منها استقراءاته ، فقدت كثيراً من وزنها العلمى . وعلى هذا يكون نقل هذين الكتابين وغيرهما من كتب « داروين » مفيداً إلى حد ما من حيث القيمة التاريخية ، لا من حيث القيمة العلمية ، ويكون الأجدر أن نعمد إلى ترجمة كتب المعاصرين الذين استناروا بما جد بعد « داروين » من المبتكرات والاستكشافات العلمية . غير أنى أرى أن هذه المعترضات ، على ما لها من القيمة ، يمكن معها تبرير ترجمة هذين الكتابين إلى اللغة العربية . ولتبرير ذلك عدة وجوه نسردها .

أما الفائدة اللغوية فمما لا سبيل إلى التشكك فيها . فان اللغة باعتبارها كائناً حياً يجب أن تتطور على مقتضى الحاجة للتعبير عن مختلف الفكرات ، وللدلالة على مختلف الأشياء . وهذه القاعدة الثابتة ، لا تترك مجالا لمنتقد ، كما أنها لا تترك حاجة إلى الاطناب لنستوفيها شرحا وتبياناً .

هذا من ناحية اللغة . أما من ناحية أسلوب البحث فالفائدة أعظم وأكمل . فان العلامة « داروين » ، وهو بحق معلم القرن التاسع عشر ، باعتبار الآثار التى خلفها مذهبه فى عالم الفكر الانسانى ، قد أكب على طريقة فى البحث خاصة به ، وانتحى

---

١ ــ ستظهر بقية اجزاء هذا الكتاب مطبوعة فى أقرب فرصة

فى جمع الحقائق واستيعابها أسلوباً قائماً برأسه فى تاريخ البحث العلمى . ولقد كان هذا الأسلوب سبباً فى نجاحه وإخراجه كتاب « أصل الأنواع » على التخصيص ، كاملا ، على قدر ما كان الكمال مستطاعاً فى عصره ، وعلى قدر ما كانت الحقائق العلمية التى عرفت لعهده معينة على بلوغ الكمال . أما أسلوبه فينحصر فى امرين اثنين : الأول سعة الاطلاع وجمع الحقائق . والثانى مقابلة هذه الحقائق بعضها ببعض . أما الصفة التى غلبت عليه فى البحث فصفة الاستقلال فى الرأى والتحرر من المذهبية بكل معانيها. فان « داروين » مع اقتناعه الاقتناع كله بفساد الفكرة القديمة فى ثبات الأنواع ، لم يسق البحث فيها ليثبت ماينا قضها متعمداً ذلك الاثبات متعصباً له ، بل بدأ يبحثها وفكره ممتلىء بالشك فى النظريتين ، نظرية ثبات الأنواع ، ونظرية تغايرها واشتقاقها بعضها من بعض . ولقد كان بحثه موجهاً إلى استكشاف ماينقض نظرية التغاير ، أكثرمما كان موجهاً إلى نقض نظرية الثبات وخلق الانواع . غير أنه لما وجد أن كل المشاهدات تدعوه إلى اليقين بصحة النظرية الثانية دون الأولى ، مضى حذراً متحرزاً فى وضع قواعدها ، فكشف عن سنة الانتخاب الطبيعى ، التى هى فى الواقع قوام المذهب الداروينى . والحقيقة أن روح البحث إن لم تتشبع بهذه الصفة الضرورية ، لم تصبح من العلم فى شىء ، فهى إما أن تصبح جدلا أدبياً ، أو تأملا فلسفياً. على أن كلا من الجدل والتأمل له فوائده ، كما أن له مناقصه . ونحن إذا اعترفنا بهذا لانحاول أن ننزل من قدر الجدليات أو التأملات الفلسفية ، بل نريد أن نقول إن البحث إذا خرج عن الصفة التى امتاز بها « داروين » فى بحث « أصل الانواع » ، لم يصبح بحثاً علمياً ، وهذا مانرمى إلى تقريره فى هذا البيان الموجز .

فاذا رجعنا إلى القواعد التى بنى عليها « داروين » مذهبه على اعتبار أن مذهبه فى أصل الانسان إنما هو استقراء ثابت مبنى على مذهبه فى « أصل الأنواع » ، إستطعنا أن نقول انه لايزال ثابتاً من ناحية العلم . فان مذهبه فى الانتخاب الطبيعى لايزال العمدة فى مذهب النشوء الحديث . وكذلك قواعد هذا المذهب من التناحر على البقاء إلى بقاء الأصلح . أما فى أصل الانسان ، فقد حاول أستاذان معروفان أن يعارضاه ، لا فى الأساس باعتبار أن الانسان مشتق من أصل حيوانى انقرض منذ أزمان موغلة فى القدم ، بل فى الفرعيات التى تكثر من حول الاسس التى تقوم عليها المذاهب العلمية والفلسفية والفنية عادة .

أما المذهبان فقد ظهرا حديثاً ، وقد وضع احدهما الاستاذ « ودجونز » المشرح

وقال بالثانى الدكتور « هنرى فيرفيلد اوزبورن » العالم البالنتولوجى المعروف

ويتخلص مذهب « ودجونز » فى أن القرود العليا فى العالمين القديم والحديث، والقردة المشابهة للانسان والانسان نفسه، قد نشأت جميعها بالاشتقاق من أصل أولى واحد فى عصور متفرقة وأنها جميعاً قد تفرعت من ذلك الأصل الأولى، ولم تنشأ بعضها من بعض. أما الاصل الذى اشتق منه الانسان فكان حيواناً وسطا بين ليمور الهند الشرقية ( Tarsier ) والانسان الأدنى. ويعرف هذا المذهب عند الانثربولوجيين بالمذهب « التاريسى »، نسبة الى الاسم الاصطلاحى الذى عرف به ليمور الهند الشرقية عند علماء الحيوان ولم يكن « ودجونز » هو واضع هذا المذهب فى الأصل، بل إنه مذهب قديم توسع فيه هذا الباحث بما لايخرج فى قوامه عما اسلفنا فى هذا الشرح الموجز. أما أول من فكر فيه فكان الاستاذ « اليوت سميث » وكان فى عهد ما استاذاً بمصر فى مدرسة القصر العينى، فعمد الى درس حيوان من البريمات ( Primate ) وترجمته الرئيسيات — يدعى ليمور الهند الشرقية ( Tarsier ) وحاول أن يعين منزلته بين الرئيسيات. والأغلب أن الاستاذ « ودجونز » قد أخذ عن « سميث » رأيه فى هذا الحيوان وتوسع فيه، فأخرج منه مذهباً جديداً، لا فى أصل الانسان، بل فى الفرع الذى تأصل منه الانسان ومنزلته بين الرئيسيات.

غير أن هذا المذهب يواجه كثيرا من مشكلات العلم الحديث. فان المشابهة التشريحية والتركيبية بين الانسان والقردة العليا ثابتة بالمشاهدة والاختبار. فى حين أن أوجه الشبه بين الانسان وليمور الهند الشرقية بعيدة جهد البعد فى صفات أساسية. ولقد اعترف الاستاذ « ودجونز » بهذا اذ قرر أن الصلات القائمة بين القردة العليا وبين الانسان تشريحياً وتركيبياً كبيرة. وأن هذه الحقائق مسلم بها فى علم الزولوجيا الحديث بما لايترك مجالا للطعن فيها بحال من الاحوال. ولكنه على الرغم من هذا مضى يزعم بأن الصفات التى يشترك فيها الانسان مع القرود العليا ليست راجعة الى وراثة عامة تجمع بينهما مستمدة من أصل واحد، بل يدعى بأنها صفات نشأت فى كليهما على حدة، وعلى استقلال فى الاصل. ولقد نقض السير « أرثر كيث » هذه المزاعم بأن قال بأن الاستاذ « جونز » ينزل كثيرا من شأن المشابهات التركيبية الدقيقة بين الانسان والقردة العليا. فانه حاول مثلا أن يتناسى الشبه الكبير بين دماغ الانسان ودماغ القرد الشبيه بالانسان. فى حين أنه يتعذر على الباحث تعليل نشوء الدماغ فى الانسان

من دماغ التارسيوس ـ نمور الهند الشرقية ـ من غير أن يمر فى أثناء انقلابه النشوئى بمرتبة لايمثلها إلا دماغ القرد الشبيه بالانسان .

أضف إلى ذلك أنه لم يذكر شيئاً عن خصائص العلاقات من حيث الدم . مثل التماثل فى التفاعل الكيماوى واستعداد النوعين للاصابة بأمراض واحدة . هذه الحقائق وغيرها كانت سبباً فى أن يموت هذا المذهب موتاً طبيعياً فى أوائل القرن العشرين .

أما مذهب « اوزبورن » فقد نشأ كما تنشأ الطفيليات ، إذ كانت نتيجة خطرة تمر بالذهن مر الشرارة الكهربائية ، أو الهزة الشعرية عندما تتأثر المشاعر بانفعال طارىء . ولقد مر على ذهن « اوزبورن » هذا الخاطر عندما كان يبحث فى مجاهل صحراء « مونغوليا » المترامية الاطراف ، إذ خيل اليه أن الانسان نشأ فى تلك المجاهل وأن القردة المشابهة للانسان لا تستطيع أن تعيش فى مثل هـذه البيئة . هذا الخاطر الشعرى كان سبباً فى أن يعمل « اوزبورن » سنين طويلة فى سبيل اثباته بالحق أو بالباطل . فأخذ يجمع البراهين والأدلة متعمداً اثباته حتى استطاع أن يعلنه فى سنة ١٩٢٧ — أى بعد سنة ونيف من مرور ذلك الخاطر بذهنه ، فصارح بأنه لم يصبح من مؤيدى مذهب الحيوانات الانثروبودية باعتبارها أصلا للانسان ، وفصل مذهبه الجديد ومؤاده أن للانسان حلقات تسلسلية طويلة من اسلاف ، دعا أحدهم « انسان الفجر » The Dawn Man وقال بأن مذهب الحيوانات الانثروبودية إن أثبت قرابة الانسان بالقردة الشبيهة به ، فانه يعجز عن إثبات تسلسله منها .

ومحصل قوله إن الانسان والقردة كلاهما نشأ عن حيوان أولى لايمكن أن تحكم أيهما هو ، أهو إنسان أم قرد شبيه بالانسان . وعلى هذا يقول « اوزبورن » أنه منذ أزمان موغلة فى القدم كان الانسان انساناً والقرد الشبيه به قرداً ، وأنهما لم يلتقيا على اطلاق القول . وعلى هذا يكون الانسان متأصلا عن حيوان أدنى بكثير من القرد الشبيه بالانسان فى سلم الحيوانية . وعلى هذا يكون مذهب « اوزبورن » على بعده عن مقتضى الواقع المشاهد ، وعدم استناده إلى براهين تنقض البراهين التى يستند اليها أصحاب القول بأصل الانسان « الانثروبودى » وعلى رأسهم « داروين » من المذاهب التى ترجع بالانسان إلى أدنى الأصول الحيوانية ، بدلا من أن تجعله راجعاً إلى أصل من أرقى أصولها .

لاشك مطلقاً فى صحة القول بأن الحيوانات الانثربودية التى تعاصرنا ليست الحيوانات التى نشأ منها الانسان . وأكبر الادلة على أن هذا القول لامبالغة فيه ، اختصاص

الحيوانات الانثروبودية الآن بعادات شجرية ( Arboreal ) أو بالاحرى عكوفها على مستلزمات العيشة الشجرية . والحقيقة التي يؤمن بها أساطين العلماء هي أن الحيوان الانثرو بودى الذى نشأ منه الانسان ، لم يكن كما تخيل البعض ، حيواناً بلغ من مدارج الرقى والتخصص مبلغ إنثروبوديات العصر الحاضر . وعلى هذا يكون مذهب الاستاذ أوزبورن معارضاً لمذهب لاوجود له فى الحقيقة . ويكون أقصى مابلغ اليه «أوزبورن» أنه وضع للحيوان الانثرو بودى الذى نشأ منه الانسان اسم «انسان الفجر» لا أقل ولا أكثر .

أما الزمان الذى نشأ فيه الانسان فالمحقق عند العلماء أنه عصر البليوسين . فاذا أراد الاستاذ «أوزبورن» أن يرجع به الى عصر الاوليغوسين، نابذه فى ذلك جلة العلماء . ذلك لانه لايوجد دليل واحد من الادلة المستجمعة فى نشوء الثدييات عامة والبريمات أى الرئيسيات خاصة ، يؤيد هذا الزعم الغريب . ومع كل هذا ، فكما قلنا من قبل اذا فرض وصح هذا القول ، فانه لايزعزع مذهب تسلسل الانسان من حيوان أنثروبودى أى شبيه بالانسان . إذن ففكرة « داروين » من الناحيتين ، ناحية نشوء الانواع بالانتخاب الطبيعى . وناحية نشوء الانسان من حيوان انثروبودى ، لاتزال العمدة فى مذهب النشوء . وعندى أن هذا المذهب أكبر مبرر يجعلنى أعتقد أن قضاء شطر من العمر فى العكوف على نقل هذا المذهب عن مظانه الاصلية ، لايذهب هباء ، بل ربما تكون فيه بعض الفائدة لفئة خاصة من المتعلمين .

***

عندما كنت أترجم الصفحات الأخيرة من كتاب أصل الأنواع . وكنت إذ ذاك منقطعاً فى جوف الريف والليل ساكن والطبيعة فى همود يشبه همود الموتى ، تملكنى احساس غريب بعث إلى عينى قليلا من الدمع حتى أغرورقتا به . فلما القيت القلم من يدى وكنت قد أتيت على آخر كلمة من الكتاب ، شعرت كأن صوتاً خفياً خرج من أعماق نفسى وأخذ يودع العلامة «داروين» ، ممثلا فى كتابه الخالد الذى عانيت فى ترجمته الأمرين، لاسباب شرحتها فى المقدمة التى وضعتها لطبعته الثانية ، وكأنه يقول : وداعاً أيها المعلم العظيم ، وداعاً أيها الصديق الصادق الود ، وداعاً أيها الرفيق الأمين ، وداعاً أيها المرشد النصوح .

ولئن عدت اليوم إلى ترجمة ثانى كتبه العظيمة ، فانما أعود اليه طامعاً فى أن تستحيل نفسى إلى هذه الصورة مرة أخرى ، وأن القى القلم بعد أن أخط آخر حرف فيه ، فان جمال هذه الصورة لن يفارق نفسى أبداً . ولعلى أنال ما أطمع فيه مرة أخرى

# ايكاروس

## Icarus : An Ultra - Neptunian Planet

## سيار جديد خارج فلك نبتون

لم تصادف الدوائر الفلكية فى انحاء الكرة الارضية منذ أن استكشف آدمس Adams - ولوفريه Leverrier - السيار نبتون - Neptune سنة ١٨٤٦ من حادث على فكان أعظم أثرا من استكشاف هذا السيار الجديد. فان الاخبار التى اذاعها فى الشهر الماضى مرصد فلاجستاف - Flagstaff قد استلفتت أنظار العالم العلمى فى انحاء القارات الخمس، بل وفى انحاء الجزر النائية التى لفظتها الطبيعة فى جوف المحيطات العظمى. وفضلا عن كل الاعتبارات التى قد يعلق عليها الناس أهمية عظمى؛ فان هذا الاستكشاف لدليل قاطع على مقدار مايستطيع العقل الرياضى الحديث ان يوحي به الى الناس من خفايا الكون



يجلس أحد عظام الفلكيين الى مكتبه منقطعا عن زخارف العالم الخارجى وعن جلبة السياسة والاقتصاد، وليس معه من المعدات إلا كمية من الاوراق البيضاء وقلما من الرصاص، ثم كتاب اللوغاريتمات، وماوهب من الكفايات الرياضية العليا، ومعرفة كاملة شاملة عن كل السيارات المعروفة والآراء التى قيلت فيها من قبله، فيمتد بفكره الرياضى الفلكى الى مايبعد عن الارض بمقدار ٣٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ميلا فيدرك وجود عالم غير معروف، ثم يزنه ومن بعد ذلك يقيس حركته من تأثيره فى حركة غيره من السيارات المعروفة، ثم يصدر أمره بان تؤخذ الصورة الفوتوغرافية لمنطقة ذلتا جنورم — وهو نجم فى كوكبة التوأمين Delta Geminorum فى مكان يعين على خطوط الطول بالضبط وبجوار نجم يسميه بالذات، ثم يحكم بان ألواح التصوير ستدل على وجود سيار خارج فلك «نبتون». وأن هذا السيار قد يكون من القدر الثانى عشر أو الخامس عشر.

إن هذا ولاشك من أكبر المفاخر التى يباهى بها العقل البشرى فى هذا العصر. إنه يستطيع أن يرى السيار المجهول بخياله كما يرى وجها يعرف تقاطيعه بباصرتيه. يوجه المنظار المقرب العظيم بعد أن يجهز بادوات التصوير الفوتوغرافى ليلة بعد

ليله الى المنطقة التى يحددها ، ثم يقارن لوحاً بآخر من الواح التصوير ، وهنالك على أحدها يظهر قرص باهت من الضوء يستدعى الاهتمام ، ثم يتضح أنه يتحرك من مكان الى مكان فوق صفحة اللوح بين ليلة وأخرى . فهو لا يحفظ مكانه دائما على ألواح الفوتوغرافية ، ويمر على هذا الحادث شهران وبعد ذلك يزول من الراصدين كل شك فى أن القرص يتحرك ، واذن فليس هناك إلا احتمال واحد هو وجود سيار خارج فلك نبتون ، وهنالك يبرق مرصد فلاجستاف الى كلية « هارفارد » بهذا النبأ العظيم ، ومن ثم يذاع فى أنحاء المعمورة .

إن الرجل الذى أثبتت المشاهدة الآن أن حساباته الفلكية قد بلغت هذا المبلغ من الدقة توفى سنة ١٩١٦

وكان هذا الرجل العظيم هو الفلكى المعروف برسفال لوويل Percival Lowell الذى وقف كل حياته على درس السيارات . ولقد كان من حسن الحظ ان يكون هذا الاستاذ الفذ على قدر من الغنى يمكنه من أن يتابع ابحاثه الفلكية معتمداً على نفسه وثروته ، فابتنى مرصد « فلاجستاف » فى مقاطعة « أريزونا » Arizona واختار له مكانا يكاد يكون أصفى مكان على سطح الارض جواً ، وهيأه بكل ما يجعل الاشتغال بالسيارات مستطاعا مواتياً . ومن الصدف العجيبة أن يكون مرصده هذا أول مرصد يقف على حقيقة السيار الجديد وأن يكون اثنان من مساعديه هما سليفر Slipher ولمبلاند Lambland من بين الذين ساعدوا على اتمام هذا الاستكشاف العظيم

## ١ — الاستكشاف فى أغوار الفضاء

ماهو السبب الذى جعل « لوويل » وغيره من الفلكيين يتوقعون وجود سيار خارج فلك « نبتون » ؟

إن الأيام التى كان يكتفي فيها العلامة « هرشل » Herschel الفلكى المعروف بأن يجوب بعدسة منظاره أقطار الفضاء قتلا للسأم وفى الوقت ذاته للوقوف على بعض أوصاف الاجرام السماوية ، قد انقضت ولم يبق للعالم بها من حاجة .

ولما احتاج العلماء الى خمس وعشرين سنة يقضونها منذ أن وضع « لوويل » أول قواعده الحسابية ليصلوا الى هذا الاستكشاف العجيب ؟ وكيف يمكن التكهن بوجود سيارات تجوب أنحاء الفضاء من حول الشمس من غير أن ينظر اليها بمنظار أو ترى بالعين ؟ هذه أسئلة طبيعية تتوارد على الذهن ضرورة عندما يقرع سمعنا وقوع مثل

هذا الحادث . أما اذا اردنا أن نجيب على هـذه الاسئلة جوابا يفهمه عامة الناس ، فالواجب أن نرجع الى شيء من سنن الميكانيكية السماوية نبسطها ونقربها للافهام بادىء ذي بدء .

إن الذى جعل «لو ويل» يتوقع وجود سيار بعد نبتون لم يكن وحيا ولا إلهاما . فان جماعة من الفلكيين غيره كانوا يتوقعون وجود هـذا السيار وكانوا ينتظرون استكشافه يوما من الايام . والحقيقة أن هذا السيار ووجوده بعد نبتون كان موضوع مقالات علمية نشرت فى الصحف المختصة خلال الخمسين عاما الفارطة

أما السبب الذى جعلهم يتوقعون وجود السيار فكان راجعا الى حركات خاصة لاحظوها فى سير السيار أورانوس Uranus فاذا استطعنا أن نفهم بعض مبادىء عامة فى الميكانيكية السماوية عرفنا السبب فى ذلك .

فلقد برهن نيوتن Newton على أن الاجسام تتجاذب بنسبة أحجامها وبعكس مربع البعد بينها . فاذا كان الذى يدور حول الشمس سيار واحد أصبحت حركته من ابسط مايكون تطبيقا على قواعد الميكانيكا السماوية . فاذا دار من حول الشمس سيار ا خر ، فاصبحا سيارين ، نتج عن ذلك بعض الصعاب فالسياران يجذبان بعضهما والشمس تجذبهما . ولكنك إذا أضفت إلى هذين السيارين ستة سيارات أخرى ، مختلفة الاحجام والاثقال والابعاد ، فانك تحصل بذلك على نظام متخالط مهوش من حيث قوات الجذب الذى تكتنفه ، وتعتورك الصعاب . فى تحديد افلاك هذه السيارات

من هنا ينشأ مايدعوه الفلكيون « بالاضطراب » فى أفلاك السيارات . ولقد علل العلامة « لابلاس » Laplace الفرنسوى حدوث هذه « الاضطرابات » فى كتابه الميكانيكية السماوية — Mechanique Celeste — أحسن تعليل ، وبينها أقوم تبيان . ففى حالة وجود سيار غير معروف خارج فلك « نبتون » تزداد حيرة الفلكى إذ يقع على مثل هذه الاضطرابات الغريبة . فالاضطرابات موجودة ومدركة بالحساب الفلكى ، ولكن أين السيار؟ وما هو حجمه ؟ هل سيظهر سيار من القدر السادس أم التاسع ، أم فى قدر غير هذين من أقدار الاجرام السماوية ، التى اصطلح عليها الفلكيون ؟ لم يكن لدى الفلكيين من علم بشيء سوى أن هنالك اضطرابات فى فلك « اورانوس » . إذا استطعت فاعرف أين مقر ذلك السيار الذى يحدث هذه الاضطرابات ويرسل بآثاره الثابتة من خارج فلك « نبتون »

ولكن لماذا حصر « لوويل » همه فى فلك « أورانوس » على بعده عن السيار

المجهول ، دون « نبتون » على قربه منه ؟ ذلك لأن « نبتون » استكشف سنة ١٨٤٦ ، وسنته ، أى دورته حول الشمس ، تتم فى ١٦٥ سنة من سنى أرضنا ! ! ولما كان هذا السيار لم يقطع بعض نصف فلكه حول الشمس منذ أن استكشف ، أى أنه لم يمض على استكشافه نصف سنة من سنيه ، لهذا لم تكن الاضطرابات التى يحدثها السيار المجهول فى فلكه بينة للباحثين تماماً . ومن جهة أخرى فان أقرب السيارات « لنبتون » وهو « أورانوس » كان قد عرف منذ سنة ١٧٨١ . وهو يتم دورته حول الشمس فى ٨٤ سنة من سنى أرضنا . ولقد استكشفه « هرشل » معتمداً على خرائط فلكية وضعت من قبله وفات واضعوها أن يعينوا أن هذا النجم سيار . ولهذا كان من السهل أن تدرك الاضطرابات التى تقع فى فلكه من ملاحظة سيره مرتين ونصف مرة حول الشمس . ولقد درس الفلكيون كل الاضطرابات التى تحدثها السيارات المعروفة فى فلك أورانوس ، ولكن هنالك اضطرابات تحدث من غير أن يكون لسيار من السيارات المعروفة أثر فى إحداثها .

وبعد أن قضى « لوويل » عدة سنين دائباً على العمل الحسابى استطاع أن يحصر الخطأ على قدر ما يستطيع فلكى أن يدرك من ذلك وهو فوق مكتبه ، فى مدى اتساعه ١٨٠ درجة من درجات الطول : فقال :

« ان السيار المجهول فى شهر يوليه سنة ١٩١٤ ، إما أن يكون فى درجة ٨٤ أو فى درجة ٢٦٣ من خطوط الطول وهو يبعد بمقدار ٤٣ أو ٤٥ ضعف بعد الأرض عن الشمس ، ومدة دورته فى فلكه حول الشمس إما أن تبلغ ٢٨٢ أو ٣٠٠ سنة وحجمه ٧ أو ٨ اضعاف حجم الأرض . وإذا نظر لاح كأنه نجم من القدر الثانى عشر أو الثالث عشر . »

ومن العجيب أن خبر استكشاف هذا السيار قد ذاع مقترناً بارقام لا تبعد عن هذه الأرقام كثيراً .

إذا تحقق الفلكى من المكان الذى يجب أن ينظر فيه ليرى السيار ، فانه إذا وقع تحت بصره استطاع أن يؤكد موضعه ولا يكون أمامه من شىء بعد هذا إلا أن يحققه فى ثلاث مواضع من فلكه الذى يدور فيه حول الشمس ، ليدرك على وجه الكمال حقيقة فلكه كله ويحسب مقدار ما يستغرق من الزمان ليقطعه حول الشمس وفى حالة ما يكون بعد سيار أو مذنب ليس كبيراً ، فان ملاحظته ثلاث ليال متوالية تكفى . ذلك لأن العدسات التى تركب فى المناظير تتحرك حركة مناسبة للحركة .

الظاهرية التى تتحركها جموع الاجرام السماوية من الشرق الى الغرب ، فاذا أظهرت الصور التى طبعت على الالواح ، لاحت الاجرام الثابتة كاقراص من الضوء ، اما السيارات اوالمذنبات ، فانها تلوح كخطوط من الضوء . ولقداحتاج الذين استكشفوا السيار الجديد إلى ملاحظته اكثر من ثلاث مرات بالنسبة الى بعده الهائل عنا . ولقد اذاع المستكشفون انهم احتاجوا الى شهرين من الزمان ، قضوا لياليها فى تعريض الالواح الفوتوغرافية وموالاة الرصد ، حتى استطاعوا أن يزيحوا كل الحجب ، ويخلصوا من كل الشكوك .

ولم يكن « لوويل » أول فلكى استطاع ان يتنبأ بوجود سيار مجهول وهو جالس الى مكتبه فى حجرة درسه ، فان « آدمس » و « لوفربيه » استطاعا ان يتنبأ بوجود سيار مجهول سنة ١٨٤٥ واكبا على العمل والحساب ، فكانت النتيجة تحقيق وجود السيار « نبتون » . ولقد كانت الاضطرابات التى لوحظت فى فلك « أورانوس » هى السبب فى استكشاف « نبتون » كما كانت سبباً فى استكشاف « إيكاروس » . فان فلكياً فرنسوياً يدعى « بوفار » — Bouvard — قد وجد من الصعب أن يحدد موقع « أورانوس » على قاعدة الحسابات التى وضعت من قبله . فعدل هذه الحسابات ووضع جداول جديدة بعد ان انفق الكثير من الجهد . غير انه وغيره من الفلكيين اخذتهم الدهشة الشديدة لأن « أورانوس » لم يكن مطواعاً فيظهر لهم فى الموضع الذى حددوه على قدر ماوصل اليه علمهم. غير انه فى سنة ١٨٤٤ وجد الفلكيون ان الفرق بين المكان الحقيقى والمكان الذى تخيلوه كان تافهاً جداً . وكان « بوفار » من عظماء الرياضيين ، فلما ادرك هذا الاضطراب الذى يقع فى فلك « أورانوس » وكان واثقاً من ان عملياته الحسابية لايمكن ان تخطىء ، علل السبب فى هذا بوجود سيار آخر مجهول يحدث هذا الاضطراب فى فلك السيار المعروف، وان هذا السيار يقع خارج فلك «أورانوس» وكان استكشاف هذا السيار المجهول — نبتون — موضع جهد فلكيين عظيمين شاءت الاقدار أن يخلد كلاهما اسمه فى صفحات التاريخ، وكان احدهما « لوفربيه » الفرنسوى ، والآخر « جون آدمس » الانجليزى .

* * *

فى سنة ١٨٤٦ نشر « لوفربيه » عملياته الحسابيه ونتائجه التى وصل اليها ، ولم يكد يذيع هذه النتائج حتى استشم الفلكيون فى الجو العلمى ريح سيار يقع خارج فلك « أوراوس » . ولقد جاهر السير « هرشل » امام الجمعية البريطانية بتقدم العلوم

بأقوى من ليلة مقمرة حجب ضياء قمرها غيم متوسط الكثافة .

ومهمايكن من أمر مناخه الآن فانه لابد من أن يكون قد مر عليه عهد كان فيه مادة مصهورة . أما الآن فهو فى برد قارس . وبضعة أشهر من طقس ايكاروس (الذى يبلغ ناقصا ٣٥٠ درجة بميزان فارنهيت) كافية لان تجعل أوكسجين الهواء ينهمل مطرا ، والايدرجين يتساقط قطعاً من الجليد الصلب .

ولن يرى هذا السيار إلا الفلكيون . لانه لايرى مطلقا بالعين المجردة .

وهنالك سؤال آخر : هل استكشفت الآن كل السيارات التى تدور من حول الشمس ؟ أم لايزال هنالك سيار آخر مجهول سوف تنم عنه اضطرابات يلحظها الفلكيون فى فلك ايكاروس ويحددونها على الورق قبل أن ترى عين بشرية ذلك السيار المجهول ؟

قبل أن يستكشف إيكاروس دارت المناقشات بين الفلكيين عن احتمال وجود سيارين لاسيار واحد خارج فلك نبتون . فمن منذ خمسين سنة خيل الى الفلكى فوربس Forbes أنه حدد موقع سيار قال إنه خارج فلك نبتون واعتقد أن هنالك سياراً آخر غير الذى خيل اليه أنه حدد موقعه بالضبط . وفى سنة ١٨٩٩ استنتج الاستاذ « لاو » Lau من اضطرابات لاحظها فى فلك « أورانوس » أنه لابد من أن هنالك سيارات لاسيار واحد

أما الفلكى العظيم « وليم بكرنج » William H. Pickering فكان واثقا من وجود أربع سيارات خارج فلك نبتون . ولقد اعتقد بهذا من احصائيات فلكية دقيقة وصل اليها . وكان يعتقد أن ثلاثة منها لابد من أن تكون كبيرة الاحجام جهد الكبر حتى لقد قال :

« مامن شك فى أن هذه السيارات سوف تستكشف يوما من الايام » . أما الفلكى « جيلو » Gaillot وكان رياضياً اعتمد « لوويل » على كثير من حساباته الفلكية ، فكان يعتقد أنه يوجد سياران لا غير

***

سوف يمضى البحث الفلكى فى طريقه المرسوم . والراجح أن الفلكيين سوف يقفون صابرين حتى يتم نبتون دورة حول الشمس ، قبل أن يكون من الممكن استكشاف عوالم أخرى .

ليس هذا كل مافى النظام الشمسى من الأشياء المجهولة — فلدينا و بالقرب منا مئات من السيارات التى نسميها «السيرات» Asteroids — تدو ر فى فلك واقع بين المريخ والمشترى . والمقول أنها بقايا سيار عظيم تهشم بحادث فلكى غير معروف . وكل من هذه « السيرات » له مشاكله الفلكية العظيمة . وهذه « السيرات » قد استكشفت جريا على قواعد « نيوتن » وعلى حساب عملى عرف بقانون « بود » الرياضى — Bode

أما «بود» — Bode — فكان فلكياً المانياً وضع فى القرن الثامن عشر قانوناً رياضياً بسيطاً تجمع بين أجزائه نسب ثابتة تصل بين ابعاد السيارات عن الشمس . وهذا القانون على صحته لم يستطع أحد من الفلكيين تعليله حتى الآن . أما القانون فبسيط جهد البساطة حتى ليمكن أن يوضع فى صورة سلسلة من الارقام كما يأتى :

صفر — ١ — ٢ — ٤ — ٨ — ١٦ — ٣٢ — ٦٤ — ١٢٨

وليلاحظ هنا أن كل عدد بعد العددين الاولين هو مضاعف ماقبله. فاذا ضربت كل عدد فى (٣) حصلت على السلسلة الآتية .

صفر — ٣ — ٦ — ١٢ — ٢٤ — ٤٨ — ٩٦ — ١٩٢ — ٣٨٤

فاذ اضفت إلى كل رقم عدد (٤) حصلت على السلسلة الآتية :

| عطارد | الزهرة | الارض | المريخ | السيرات | المشترى | زحل | اورانوس | نبتون |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ٤ | ٧ | ١٠ | ١٦ | ٢٨ | ٥٢ | ١٠٠ | ١٩٦ | ٣٨٨ |

فاذا أخذنا بعد الارض ممثلا بعدد (١٠) وجدنا أن هذه الاعداد تمثل على أقرب وجه نسبة بعد السيارات الاخرى عن الشمس .

ولقد ثبت أن هذا « القانون » كبير الفائدة فى تعيين مواقع بعض الاجرام . غير أن سلسلته تنقطع عند « نبتون » . وليلاحظ هنا أن العدد ٢٨ لايظهر إلا فى السلسلة الثالثة . لهذا وجب أن يكون ممثلا لسيار يقع فلكه بين المريخ والمشترى ولم يكن يعرف الفلكيون وجود مثل هذا الجرم المتحرك . ولكن بعد أن أذاع « بود » قانونه اعتقد الفلكيون أنه لابد من أن سياراً كان موجوداً فى ذلك الفلك ثم انفجر فأخذوا يبحثون عن أجزائه .

وكان من حظ الفلكى « بيازى » Piazzi الايطالى أن يرى أول جزء من أجزاء هذا السيار ، ظاناً أنه السيار المنشود . ولم يكن لديه من وقت آخر ليتم عمله لأن السيار كان قريباً جهد القرب من الشمس . وكان من الصعب أن يحدد موقعه بأخذ

ثلاثة أوضاع للسيار فوق فلكه، لأن الاوضاع كانت متقاربة، ثم اختفى النجم فى اجواز الفضاء.

وهنا استطاع رياضى المانى هو بلا نزاع أبرع رياضي الالمان أن يطبق طريقة جديدة لحل هذا الاشكال. فان «جوس» Gauss وكان معلماً غير معروف ولا مذكور بلسان، وضع طريقة سماها طريقة «المربع الأدنى» — Least Square — اخترعها ولم يكن قد أذاعها، فبرهنت على أنها من أقوى الاسلحة التي تسلحت بها الرياضيات الفلكية فى التنبؤ بما سوف يقع من الاحداث.

ولقد استطاع بطريقته هذه أن يتنبأ أين ومتى سوف يظهر السيار المختفى مرة أخرى. وبذلك استطاع الفلكيون أن يقعوا مرة أخرى على السيار «سيريز» Ceres بعد أن فر من تحت منظار «بيازى»، من قبل. ومن ثم استكشفت اجرام سيارة مثله تسير فى فلكه مثنى وثلاث. والمعروف منها حتى الآن ألف سيير وربما وجد غيرها ولم تعرف مواقعها حتى الآن.

وكثير من هذه السييرات لا يزيد قطرها عن ستين ميلا، وقد يكون قطر بعضها أصغر من ذلك. أما أكبرها فقطره يقل عن ٥٠٠ ميل. والمعتقد الآن فى أصل هذه السييرات يختلف عن معتقد فلكي القرن الماضى. فهم يرون أنها ليست بقايا سيار محطوم. بل يرجحون أنها أجزاء كان سوف يتكون منها سيار، حال دون تكوينه حوادث لم تمكن هذه الاجزاء من الالتحام

## ٣ — النظام الشمسى

لنا الآن تسعة سيارات. أما مجموع النظام الشمسى المعروف فيتكون مما يلى:

٩ سيارات — ٢٤ قمراً — ١٠٠٠ سيير — ١٠٠,٠٠٠ مذنب — وعدد لا يحصى من النيازك. فأية فكرة فى الاتساع والعظمة يمكن أن نكونها من هذا النظام؟ وماهو تكوينه الطبيعى؟ وماهو تكوينه الكيميائى؟

أول ما نصادف فى النظام الشمسى من السيارات، السيار عطارد — Mercury — وهو سيار يواجه نصفه الشمس على الدوام. والنصف الاخر لا يرى الشمس مطلقاً. فجانب منه أتون شديد الحرارة إلى درجة تذيب الرصاص. والجانب الاخر جليد مرعب. وبعد عطارد تأتى الزهرة، وهى سيار مقنع بحجاب من الغيام لم تنفذه الانظار حتى الان إلى سطح القرص السماوى. حتى أن الفلكيين استنتجوا أن سطح الزهرة يشابه الآن سطح الأرض كما كانت عندما كان «الدينوصور» — Denausors —

يجوب أنحاء أمريكا الشمالية ، وبلاد الصين ، وعندما كانت مجاهل سيبيريا عبارة عن غابات استوائية الحرارة . وبعد ذلك يأتى المريخ الذى يشابه الأرض من عدة وجوه ، والذى اعتقد « لوويل » على الرغم مما وجه اليه من الانتقادات الشديدة أنه مأهول بأحياء . ولا يقابل هذا الرأى الآن بما قوبل به من الاستهزاء عند أول اذاعته ، بعد أن أثبت الحل الطيفى وجود الماء والاوكسجين فى جو المريخ

إذا خرجنا من فلك المريخ صادفنا سيارات أكبر حجما ، متى جاورنا مدار السييرات Asteroids وهذه ظاهرة لم يستطع الفلكيون تعليلها حتى الآن . وهنا لك أسباب يستند اليها الفلكيون فى القول بأن هذه الجبابرة العظام ، ولو أن سطحها فى حالة التجمد الجليدى ، إلا أن باطنها لايزال شديد الحرارة . وأنها لاتزال تشابه الشمس التى كانوا قطعة منها يوماً من الأيام .

ولايزال الفلكيون يجهلون السبب فى أن اربعة السيارات الأولى صغيرة الحجم كثيفة المادة، والاربعة التى تليها كبيرة الاحجام خفيفة المادة . فان « زحلا » وهو أحد جبابرة النظام الشمسى بعد « المشترى » خفيف الوزن إلى درجة أنه يعوم فى الماء إذا قذف فى بحر يسعه وهذه الظاهرة إشكال من أكبر الاشكالات الطبيعة التى تصادف المشتغلين بالكونيات Cosmologists

ان اليوم فى الأرض والمريخ يكاد يكون متشابها . أما فى السيارات الاخرى فالفروق كبيرة هائلة . فاليوم من عطارد يبلغ عاماً من أعوام أرضنا . لأن فعل الشمس المادى فى الازمان الخالية ، قد أبطأ حركته فى دورته حول نفسه أى فى حركته حول محوره . أما الزهرة فقد تستغرق حركتها حول محورها يوماً أو عاما . ذلك لأن حجاب الغمام الكثيف الذى يحجبها عن أنظارنا يجعل التحقق من هذا الامر مستحيلا .

***

إذا تركنا المريخ ، وخطونا خطوة فلكية أخرى ، وجدنا أن الحركة حول المحور تزداد سرعة . فالمشترى يقطع ٢٨٫٠٠٠ ميل فى الساعة . وهى سرعة عظيمة إذا استطاعت الأرض أن تضاعفها سيراً ، أصبح يومنا ساعة واحدة فقط ! وكذلك زحل فانه يدور حول محوره بسرعة ٢٢٫٠٠٠ ميل فى الساعة . أما سرعة هذه الدورة فى أورانوس ونبتون فمن الصعب تحقيقها ، غير أن هنا لك بعض الاسباب التى تجعل الفلكيين يعتقدون أنها لاتزيد عن ١٠٫٠٠٠ ميلا فى الساعة

وهنالك فروق كبيرة فى ميل محور هذه الكرات على أفلاكها . فزاوية الميل فى الشمس مثلا سبع درجات وفى نبتون ثلاثة وأربعين درجة . وفى هذا يقول «لوويل»

# شيطان بنتئور

## ( المحادثة الثالثة عشرة )

قال الهدهد لما كان الغد خرجت الى الموعد الاتى النسر فى مصر ، بين الجزيرة والجسر، وأنامسرور بلقائه فى وطنى، والاجتماع به بين قومى، لعله ينفعنى بالتنبيه والارشاد، ويفيدنى بالملاحظة والانتقاد، فيما خفى على من اخلاق الرجال، وماغاب عنى من حقائق الاحوال لان الغريب حريص على الصغيرة والكبيرة، يرى من كل بلد يحله مالا يراه أهله ، كالتمساح لا يبصر فى الماء وهو موطنه الذى يعيش فيه، فاذا خرج منه كان أحد الحيوان لحاظا، فكيف به مثل الاستاذ واسع العلم و الدراية ، متقادم العهد على صحبة الزمان وأهله، فبلغت النهر، وكان الاصيل على سمائه ذهبا، والريح على مائه لعبا ، والمنظر على فضائه عجبا، وكان الناس يخرجون اليه موكبا موكبا، تجرى بهم المركبات من كل طراز وشكل، فمن ( بسكليت ) كبساط الريح لاتراها ، وتنظر من أجراها ، تمرق كالسهم مروقا ، وتخفق كالريح خفوقا . وتنساب فوق طريق الناس فتصوت كالافاعى ذات الاجراس، ومن ( أوتوموبيل ) كجنى عنيف، ذى هبوب وعزيف ، صوتها أنكر الاصوات ، وفيها جمعت المزعجات وراكبها لا فى الاحياء ولا الاموات ، ومن ( ترامواى ) تنقل الاقوام من شاطىء النهر الى الاهرام ، وهى تمضى بصاحبها ثم تمضى عليه بخلاف الايام فيما ذهب الشاعر اليه :—

ما أسرع الأيام فى طينا  تمضى علينا ثم تمضى بنا

ومن مركبات تنقاد باعنة الجياد ، منها مالاتسمع له حسا ولا جرسا ، كانما يهمس فى أذن الأرض همساً، وبعضها كالدار طبقات تتبوأ مقاعدها فيها الجماعات ، وبعضها قليل الحجم يجره فرد ويركب فيه فرد . وبالجملة وجدت متنزهات الجزيرة والجيزه حافلة بصنوف المحدثات، جامعة لانواع المخترعات ، كأنهاغاب بولونيا الشهير فى باريس ، لولا أن القوم عليها كشكول ملل ونحل وأجناس ، وأزياء وألوان ، وقد ذهبت أيام الحمير وتصرمت دولة البغال ، فنسى الشيخ فى مركبته ذكر بغلته، وكانت مجلى زينته فى ذهابه وجيئته، وهاجر السيد الحمار الى الدوكار وبرز الكبراء للناس فى الاتوموبيل وكانوا ينكمشون وقارا فى المكوبيل، والهت البسكليت الخصى ، عن جواده العربى، وسرجه الفضى ، وكانا زينته بالغداة والعشى ، وركبت السيدات فى مكشوف المركبات ، تجرى بهن بين أعين الجماعات، وكن فى مثل هذه الاحوال، لا يملن حيث يميل الرجال، عادات

بدلت ، وأحوال تحولت ، وآية للغرب فى الشرق علت ، والقاب حضارة ومـــدنية لاشرقية ولاغربية

( قال ) فلما صرت على الجزيرة تقصيت النظر أنشد النسر عليها فرأيت من بعد درويشا قد خلا بنفسه فى ناحية وهو يستقبل النيل ويديم النظر اليه . فوجدت ريح النسر لأول وهلة ـ وتقدمت اليه فقلت سعد النيل بشاعره فى الزمان الاول يامولاى، قال وسعدنا به يا بنى ، إنه سموءل الانهار ، الوافى على الادهار الجارى بالليل والنهار . عبد قديما وأله وقدس وجه الدهر ، وبزه وآوى النبيين فى المهد صبيين، فجرى التابوت فيه بموسى . وبلغ العظام لديه عيسى . ولايعلم إلا مجريه كيف انفجر، ثم جرى وانحدر ، ثم كفلته الشمس والمطر، وكم قرية غمر، واخرى دمر ، وهيكل نثر وديانة قبر ، وكم أفنى من زمر، بمن نهى وأمر، وتكهن وسحر، وفتح وانتصر، ألا وانه المنهل العذب اقتتل عليه القاهرون فوق البشر فانتهى اليه قمبيز بغاراته ، فالاسكندر بفتوحاته، فقيصر بانتصاراته، فابن الخطاب بغزواته، فسليم بحملته، فنابليون بتجريدته .

هذا يابنى حظه من التاريخ لاينافسه فيه نهر ، ولايزاحمه عليه بحر، على ان حظه من الطبيعة أوفر، وقسطه من نعمائها أكبر شمس تزهر ، وافق أنضر ، وواد أخضر وجو لايستعر ولا يخصر، ونسيم يخطر، ومطر يندر، ورزق بأيسر السعي يحضر، وسهل صعب على العدو ، ولجة تستعصى عليه على مابها من هدو ، لو وجد من يمنعه من الدنو .

وفوق هذا وذاك هو القائم على هذا الناس بالاقوات اذا فاض أحيا واذا غاض أمات ولايزال يأخذ من للبر من البحر، فتتسع مصر بفضله من سهل وواد، وقرى وبلاد .

قال الهدهد فشغفتنى هذه الكلمة فى النيل، ووددت لو لم يختصر النسر من هذا البحث الجليل، وان يك أتى بالكثير فى القليل ، وكان قد التفت فرأى المراكب تموج على تلك المروج ، فسألنى لعل هذه مصر القديمة ونحن على نقراطيس، قلت وما نقراطيس يامولاى. قال ثغر كان لنا على البحر ـ قامت ( فوة ) مكانه اليوم ـ وكان للاجانب لايؤذون لهم ان يسكنوا سواه ، ولايسامحون فى الخروج منه الى غيره من نواحى القطر .

قلت بل نحن فى عاصمة البلاد يامولاى، وهؤلاء هم مقترفوها من اهلين واجانب.

قال وماهذه المطايا التى لاتجوع ولاتظمأ ، وكيف تسمونها ؟ قلت هذه محدثات الغربيين تجلب الى مصر فيتهافت الاغنياء على اقتنائها، ولم يتفق علماء اللغة على تسميتها حتى الآن. ولعلهم لايتفقون . فان القوم اخترعوا الاوتوموبيل من كل حجم وشكل واتخذوا منها دوارع فى البر، ونحن لانرضى عمن سماها السيارة ولاعمن دعاها بالجوالة ،

قال النسر اللسـان يابنى من حيث هو مضغة مرآة الصحة ، ومن حيث هو اللغة مرآة الامة ، ولاغرابة فى أن تقعد بكم اللغة وتخونكم فى ميسور الامر وعسيره ، فهى انما تأخذ بنصيب من هذا النقص العام، وتتأثر بهذا العجز الشامل لانها للعلم مثل الظل للشبح تتضاءل بتضاؤله و تطول بطوله

والعلم فى التجارة وفى الصناعة وفى الزراعة مثل ماهو فى الشروح والمتون . وفيما يسمونه الفنون الجميلة فكلما ظهرت آثاره على هذه الاشياء فى مجموعها، اتسعت اللغة من مادة وازدادت من حياة، وتهذبت على الزمن ، وحسبت على ناموس الارتقاء ، يقتادها بأزمته و يجرى بها فى اعنته

هـذه يابني هى الحياة الحقيقية للغات وماسواها فتوهم ، ووجود أشبه بوجود الاجسام المحنطة يظن بها حفظ وهى وان طال المدى ستبيد

قلت انك لتنعى يامولاى ، قال ومن أنعى ، قلت اللغة العربية ، فقد حيل فى التعليم بينها و بين العلم الذى تزعم أنه للغات كالروح للجسم

قال وماذا يحول بينهما قلت الحكومة فى مدارسها والكتاب فى منشآتهم، والعلماء فى مؤلفاتهم، والجرائد فيما تنشر كل يوم . فاما الحكومة فقد استقر عند القابضين على أزمة التعليم من رجالها فى السنين الاخيرة، ان اللغة العربية لحقت باللغات الغابرة ، وأنها فى واد وعلوم هذا العصر فى واد . ولا يزالون على هذا الرأى و فى هذا السعى حتى ييبس مابين اللغة العربية و بين العلم ، ولا يكون بعيداً حتى نعدم من يعلم قواعد الحساب فيها ، أو يعلمها الناس بها . وأما الـكتاب فقد قل من جمع منهم بين العلم والبيان وهم المشهورون منهم بالاجادة فى الوصف والتصوير وانتقاء اللفظ، والاحتيال على المعنى، واتباع الشعراء فى الهيام، ومزاحمتهم على الخيال، حتى ضاع محل الـكتابة العلمية بين منشآت الـكتاب، وخلا أكثرها من حقيقة ، التاريخ وروح الفلسفة ، ونبذت فيه العلوم الطبيعية وهجر الطب والفلك وغير ذلك، مما له فى اللغة العربية أساس طال عليها الأبد وغيرها الترك و الاغفال .

وأما العلماء فى مصر فأبعد الناس عن معرفة فى اللغة أو تمكن من أدبها ، يمتلىء دماغ أحدهم من العلم و يتغرب فى سبيله، وينفق الايام فى تحصيله، وإذا ألف بعد ذلك لم يؤلف فيما يعرض على أبناء العربية بين صحة التقرير، وسلامة التحرير. ولا استحي يامولاى أن أختص بالذكر فى هذا المقام ، أولئك الالوف ممن خرج أو يخرج من الازهر وهم علماء الدين المتفقهون فيه ، أحوج ماكان الخواص والعوام إلى كتاب منهم مجيدين يبينون للأمة مواضع الحكمة فى أحكام الدين ليقروها فى أذهان الخاصة

ويقربوها من عقول العامة ، ومع ذلك لم يقم من بينهم حتى الآن إلا ثلاثة أو أربعة يروجون لمثل هذا النفع . ومن البلية أنهم بهذا الفضل محسودون ، ومن أجله ممقوتون . رب مدرس يامولاى تقلب على أعمدة الازهر، وافنى الطلبة طبقة بعد طبقة ، وإذا أراد أن يكتب إلى ولده فى بعض الشئون خانه القلم ، وكتب مالا يفهم ، وكان فى رسالته أنكر خطا وأكثر خطأ ، من شاب أرسل إلى الغرب فى أول الصبا ، كلما دعاه داع ليكتب الى أبيه بالعربية،وأما الجرائد يامولاى فمشغولة فى الغالب بسفاسف السياسة عن كل شغل،منصرفةعن وجوه الخدمة الحقيقية لايهمها إحياءاللغة بالعلم ولا يعنيها نشر العلم باللغة،وشتان ما بينهما فى ذلك و بين الصحف الغربية التى هى من التمكن ، وكثرة الانتشار ، بحيث تلحظ احوال الزمن كل يوم ، وتنظر فى سياسة العالم باسره.ومع ذلك فالأهم عندها المقدم من واجبات الصحافة ، انما هو ترقية الآداب ونشر العلم بين الجماعة والبحث فيا يجد منه ويكتشف فيه بحثا مدققا ربما كانت فيه من قرائها بمنزلة الاساتذة من تلاميذهم .

قال الآن علمت ان الناس فى الاساس،ثم التفت والتفت فبدأ له وراء النهر قصر عليه بهاء و رونق ؛ وان لم يكن بالسدير ولا الخورنق،فأومأ اليه وسألنى لمن الدار؟ قلت لزعيم الاحتلال،والرقيب على جماعة الرجال،يعده الانجليز فى جملة عظمائهم،و يختلفون الا فيه.و يرمقون بناء لهم فى الاستعمار بنيه،تخير هذه البقعة،ثم بنى فوقها تلك الدار ، فبنى الكثيرون على الآثار ، حتى جاورها من ليس لها بجار ، وكثر عليها فى الزيارة من كان يجادل فيها الزوار ، واصبحت هذه الناحية وفيهااعتبارهنا الفلاح المصرى، وهنا المستشار ، فلم يكن من النسر الا أن ابتسم،ثم قال لا احتلال،فدهشت من هذا الجواب . وقلت أمازح يامولاى أم أنت لم تفهم مقالى ؟ قال بل أنت الذى لم تفهم، فلا تجادلنى حتى تعلم،وفى هذه الاثناءمرت مركبة صغيرة يجرها جواد واحد،يمسك عنانه شاب من الانجليز،لا أبهة على ركابه ، ولا زخرف على ثيابه،فيه حشمة و وقار،وعليه للتواضع آثار، حمل على احدى عينيه زجاجة،فابرقت تحتهاوترك الاخرى تتمثل بقول المتنبى :—
هو الجد حتى تفضل العين أختها : فجعلت أنظر اليه فسألنى النسر من هذا الذى شغلتك رؤيته؟قلت هذا مستشار المالية يامولاى ، له المحل الثانى فى الاحتلال،وهو على خزائن مصر يدبر المال ، ويشرف على الجليل والحقير من الاعمال . فتبسم النسر ثم قال لااحتلال،فقضيت العجب من هذا الاصرار ، على الانكار ، وقلت أتريد يامولاى أن آتيك بدليل على النهار ، قال لا، بل أريد أن تصبر معى،وهناك اقتربت منا مركبة فيها

ضابطان كأنهما ساريتان ، عليهما حلتان حمراوتان ، وهما يشيران بوجهيهما نحو السماء تعاظماً وعزة . فسألني النسر ممن الجند ؟ قلت وما انتفاعك يا مولاى بسؤالى اذا كان الجواب لا يقنعك ، قال لعلها من جيش غريب ، قلت وهو جيش الاحتلال له فى كل ناحية من القاهرة معسكر ، وكل واحد من جنوده علم انكلترا الذى لايمس ، وسيفها الذى لايجس ، وقد بولغ لهم فى الرعاية والحيطة ، فجعلوا فوق القوانين كلها فى البلاد ، وانشئت من أجلهم محكمة مخصوصة يحاكم المعتدون عليهم أمامها . فتبسم النسر كعادته ثم قال لا احتلال .

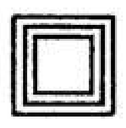
فكتمت غيظى وغلبت النفس على غضبها ، وقلت لاسبيل يامولاى الى الجحود ، بعدما رأيت الجنود ، قال مثل البلاد ، تراها أنت بعين وانظرها أنا بعين كالمريض بين العائد والطبيب ، ينظر الاول الى جسمه الناحل وقوته الواهنة ، وعينه الغائرة ، وشفته الذابلة وعرقه المتصبب ، ويسمع زفراته المتصاعدة ، واناته المتتابعة ، فيرق له ويرثى ويتوجع ثم يخرج من عنده وليس المرض فى اعتقاده الا ما رأى بعينه وسمع باذنه . فاذا سأله سائل ماذا بصاحبك قال بجسمه نحول وبشفته ذبول ، ووصف سائر ماشاهد من الاعراض ، ويكون الطبيب فى هذه الاثناء قد نظر لسان المريض ثم جس نبضه ، ثم قعد يقرع ويتسمع ، ثم انصرف يقول فى نفسه داؤه كذا ودواؤه كذا . وقد كنا يابنى أمة نسعد يوماً ونشقى يوماً وكانت لنا دولة تعلو حينا وتسفل حيناً ، حكم الاجانب فيها مراراً ، فلا أذكر أنهم حكمونا يوما ونحن أمة كملت فيها أدوات الحياة ، أو سلبونا دولتنا وهى فى منعة وامكان قائمة على حقيقة الملك والسلطان . فعلل الامم إذاً باطنية لايرجى فيها الشفاء حتى تعالج فى مواطنها وما قام هذا العالم منذ قام الا على هذه القاعدة « كل ضعيف الركن مضطهد » وهى تسرى على الحجارة و النبات ، كما تسرى على الحيوان والانسان . فالجبل يجذب اليه الذر ولا يجذب هذا اليه الجبل ، والسرحة تزهق الحشائش ولاتزهقها هذه ، والذئب يفترس الحمل وأن يكون له فريسة ، وكذلك الناس جهلاؤهم لعقلائهم تبع ، وضعفاؤهم لأقويائهم خدم . سنة الدهر فى بنيه وشيمة قديمة فيه

فالاولى بالذين يتصدون لفك الامم المسترقة ، وتحرير الشعوب المملوكة ، أن يعلموها أن قيود الحديد لاتعالج إلا بمبارد الحديد ، فالعقل لايقاوم إلا بالعقل والقوة لاتستدفع إلا بالقوة ، والناس منذ وجدوا رأس وذنب . والدنيا مذكانت لمن غلب . قلت أفدت يامولاى وأرشدت ، ولكن هذا كله لاينفى وجود احتلال أجنبى فى البلاد ، أريتك آثاره فانكرتها ، ولم تذكر السبب فى الانكار . قال الهدهد فجعل الاستاذ يتثاءب ويدخل فى السنة المعهودة ثم قال كلمته المألوفة

اذا جاء الليل ذهبت الشياطين . وسألنى بعد ذلك أين الملتقى غدا؟ قلت على الازبكية يامولاى . قال الآن لك وكر ولى وكر، فلن يجمع الليل الهدهد والنسر

ثم احتجب عيانه وذهب شيطانه فانثنيت فيمن انثنى من الجزيرة ، وانا اذكر ما كان، وأخشى أن يكون فى البلاد احتلال ثان، من روس أو ألمان ، أو صين أو يابان ، وهى. بحمد الله مذ كانت لا تضيق بنازل، ولا تبكى على راحل . ولكن قلت فى نفسى ليس بعد خفى الاشارة، إلا جلى العبارة . وما تجاهل النسر إلا وفى نفسه أمر ، فقد عودنى منذ انعقدت بين شياطيننا الالفة أن يجد فاحسبه يهزل، ويهزل فأخاله يجد ، وأن يتوضح آونة و يكتم آونة و يقتضب تارة ويسترسل تارة ويعلم حينا و يتجاهل حينا . وانا إنما أتأدب بأدبه ، وأذهب بالمحادثة فى مذهبه ، وأصبر على مرافقته ، وموافقته لانه عالم يصحب على علاته وحكيم يحب فى جميع حالاته . واذا انقلت الى الناس أحاديثه فانما انقلها كما هى ليأخذوا الدر ويذروا المختاب، ويدخلوا ظلمات المعدن على الذهب . على أنى أنبه من تهمهم هذه المحادثات من القراء الى ايام النسر فى مصر ، لانها انما تتناول الحالة الحاضرة ولا مستقبل لقوم لا يهمهم حاضرهم





# اللاهوت والعلم الطبيعى

## الخرطوميات

## Proboscidea

### تاريخ نشوئها وتحولها وهجرتها فى القارات العظمى

دليل ينقض مذهب الخلق المستقل ويثبت مذهب النشوء

---

لما نشر العلامة « داروين » كتابه « أصل الانواع » قامت فى وجهه عاصفة من الاحتجاج اللاهوتى أثارها رجال الكنيسة ، على شطريها كاثوليك وبروتستانت ، وأخذ رجال الكنيستين يرمون الجهبذ الكبير بكل ماصورتهلم أوهامهم من التهم ، وينعتونه باخس ماعرف فى معاجم اللغة من صفات السقوط والاسفاف . ذلك لأن مثل كتاب داروين أزاء عالم اللاهوت ، كان كمثل محراث صادف قرية من قرى النمل فى أرض مرملة . فكنت ترى فى كل مكان أولئك الذين صحوا من نومهم الهادىء العميق ، قد تهافتوا جماعات أخذها الغضب ، وفعلبها الاضطراب . فالمجلات والمواعظ الدينية ، والكتب كبيرة وصغيرة ، أخذت تنهال على المفكر الجديد من كل جانب انهيالا وتترامى عليه تراميا .

أما رحى اللاهوت فقد حملها توا ومن غير توان مستر « ولبرفورس » اسقف اكسفورد وظهر بها على صفحات مجلة الكوارتارلى . فقد أعلن أن « داروين » قد أجرم أشنع جرم بأن « حاول أن يحدد مجد الله فى فعل الخلق » . وأن « مبدأ الانتخاب الطبيعى لايتفق بحال من الأحوال مع كلمة الله » — وأنه يناقض « العلاقات المنزلة التي ربطت بين الخلق وخالقه » . وأن هذه النظرية « لاتتفق وما يقتضيه كمال المجد الآلهى ، وأنها نظريه فى الطبيعة تحقر القائل بها » . وأن هنالك تعليلا أبسط وأكثر بداهة يمكن أن يعلل به وجود تلك الصور العضوية الغريبة القائمة بين أعمال الله » . أما ذلك التعليل فينحصر فى « هبوط آدم »

ولم تقف جهود الاسقف الكبير عند هذا الحد . ففى اجتماع الجمعية البريطانية

---

(١) اعتمدنا فى بعض تقريرات من هذا المقال على فقرات من كتاب بين الدين والعلم الذى نشرناه حديثاً ويطلب من دار العصور للطبع والنشر .

لتقدم العلوم سنة ١٨٦٠ بجامعة اكسفورد ، زج الاسقف بنفسه بين الخطباء ، فافتتح الخطاب بمهاجمة « داروين » وتسفيه آرائه ، ثم عقب عليه بمستر « هكسلى » المشرح المعروف فقال الاسقف فى سياق كلامه :

« وانى لأشعر بقوة تدفعنى لأسأل مستر « هكسلى » وهو جالس بجانبي يكاد يقطعنى إربا إذا مااستويت بجانبه ، أن يبين معتقده فيما إذا كان يمت بروابط النسب إلى القردة . وهل جده أم جدته هى التى تمت بحبل النسب اليها »

فلما وقف مستر هكسلى ليؤيد المذهب قال فى عرض خطابه :

« لقد قلت فيما سبق وأعيد على مسامعكم قولى ، إنه لا يحق لانسان أن يخجل من أن يكون جده من القردة . واذ وجد من أسلافى من يتولانى الخجل اذا نسبت اليه ، فانسان ضعيف العقل ، لم يقنع بما حازه من نجاح غير ذى قيمة فيما هو آخذ به من العمل فى الحياة ، فقذف بنفسه فى غمار مباحث ليس له بها من علم ، وأورى زناد فكره ليعمى عليها بقوة من الخطابة غير محدودة المقاصد والغايات ليسترعى انتباه سامعيه الى حيث يجرفهم سيل الحيرة والارتباك ، ويبعدهم عن حقائق العلم بصلفه واجحافه ، ويلجأ فى ذلك الى مقولات لاهوتية حشوها التغرض والاعتساف »

ولقد دوت هذه القذيفة فى أنحاء انجلترا دوياً تناقلته عنها أجواء البلاد الاخرى .

على ان أقوال « ولبرفورس » وكان معدوداً من أنبه رعاة الكنيسة الانغليكانية قد تلقتها الكنيسة الكاثوليكية الانجليزية ، وجاوبت عليها بصوت آخر . ففى خطاب ألقاه الكردينال « مانتج » Manning أمام أعضاء « الاكاديميا » - Academia - وكانت قد تكونت لمحاربة ما « يدعى العلم » هوجم المذهب الطبيعى الجديد ورمى بالتجديف ، ووصف بأنه « فلسفة وحشية » إذ تقضى عقلا بأن « لا إله ، وان القرد هو أبونا آدم »

ان هذه الهجمات التى قامت بها مصادر اشتهرت فى عالم اللاهوت ونبه صيتها فى جو الكنيسة ، قد صبغت الفكر الكهنوتى بصبغة ما بضع سنين . فقد ذهب كاتب كهنوتى معروف على الرغم من السنوات الثلاثين التى أنفقها « داروين » فى عمله الهادىء المستمر ، وعلى الرغم من تلخيص ذلك الكاتب أصل الانواع تلخيصاً بلغ منتهى القوة والمتانة ، الى القول فى احدى مجادلاته : « لكان أجدر بداروين أن

يكون أكثر نهى بأن يزودنا ببعض الاسباب الاولية التى تحملنا على نبذ المذهب الذى يعتنقه الجميع » .

ولديك لاهوتى آخر مشهور وكان نائباً لرئيس معهد أسس « لمحاربة العلوم « المضرة أو « الخطرة » ، قد أعلن ان مذهب داروين « محاولة يقصد بها انزال الله عن عرشه » . وذكر ناقد آخر أولئك الذين تقبلوا مذهب داروين وآمنوا بصحته ، بأنهم كمثل الذين وقعوا تحت تأثير وحى جنونى أوحى اليهم به من استنشم غازاً وبائياً كريهاً ، كما قال فى براهين « داروين » انها : « غابة ملتفة فى فروض خيالية » . وتكلم آخر عن مذهب داروين فقال بأنه يفرض ان الله « قد مات » ، وأعلن ان مؤلفات « داروين » انما : « تفتح باب الاضطراب فى كل شىء من الاشياء التى أظهرها لنا الله فى كتبه المقدسة عن وسائلها ونتائجها فى عمله . وقال ثقة آخر من رجال اللاهوت بأنه : « اذا كان مذهب داروين صحيحاً ، إذاً فسفر التكوين كذب . وبه ينهدم ذلك الهيكل العظيم الذى نستقرىء آياته فى كتاب الحياة ويتحطم تحطيما ، ويصبح وحى الله للانسان ، كما نعرفه نحن أبناء النصرانية ، عبارة عن سخرية وخيال » وقال آخر : ممن أظهر صفات أهلت به لأن يكون من مستقرئى أسرار الطبيعة ، بأن « المذهب الداروينى « دعوى باطلة من أولها » .

وفى جو امريكا ترددت الاصداء . فقد قالت مجلة من أكبر مجلات الفئات الدينية انتشاراً فى امريكا — إن داروين « يحاول أن يزيد الاشكال ظلاماً على ظلامه » ، ورفضت أخرى فكرات داروين باعتبار أنها « خيانة » وعدم « أمانة » . وأعلنت المجلة التى تمثل فرع الكنيسة الانغليكانية بعد أن أوسعت « داروين » تسفيهاً وتحقيراً ، أن مذهبه — « سفسطة وبعد عن المنطق » ، ومن ثم زلقت بقدمها فى مناقشة خطرة قالت فيها — إذا صحت هذه النظرية الفرضية فهل تكون الاناجيل خيالا لا يمكن تصديقه ؟ وهل ظل النصارى أكثر من الفى سنة غارقين فى لجات يم عميق من الكذب الفاضح ؟ « ان داروين يريدنا أن نكذب كلمة الخالق الأولى » وحاولت جريدة أخرى تابعة لهذا الفرع من أفرع الكنيسة أن تثبت نظرية النشوء مناقضة للنصوص الصريحة التى أعلنت فى العهد الجديد ، كما أنها تناقض نصوص العهد القديم ، ثم قالت : إذا كنا جميعاً أناسى وقرودا ، اصدافاً وبزاة ، قد نشأنا من جرثومة أصلية واحدة فهل يمكن أن يكون تصريح القديس بولس العظيم من أن

الاجسام مختلفة، وان أجسام الآدميين نوع غير أجسام البهائم والوحوش ـــ وهذين غير أجسام الاسماك والطيور ، غير صحيح ؟

وارتفع صدى آخر من أوستراليا. حيث نشر الدكتور « برى Dr. Perry كبير أساقفة ملبورن كتاباً هو أشد الكتب مضاضة وأكثرها مرارة ، عنوانه « العلم والانجيل » أعلن فيه أن الغرض الاول الذى يرمى اليه شامبرس وداروين وهكسلى هو أن يزرعوا فى قرائهم بذرة انكار الانجيل وعدم الاعتراف به » .

وعلى هذا النسق سار اللاهوتيون فى أنحاء الدنيا المتمدينة فى فرنسا والمانيا وامريكا وايطاليا واسبانيا .ولقد مضى الجميع يقولون بأن المذهب الدارويني لن يثبت إلا اذاظهرت الحلقات التى تربط بين الانواع . وكان فى أمريكا دكتور لاهوتى يدعى دكتور « بر » Burr قيل بأنه استطاع أن ينقض المذهب النشوئى ( ويرمى به الى الكلاب ) وبينما كان هذا الدكتور يحوط بهالة من المديح والثناء كان الاستاذ ( مارش ) فى جامعة ( يال ) يتم سلسلة الحلقات التى تظهر صلة النسب بين الحصان وبين حيوان من ذوات الاظلاف ذى خمسة أصابع . وفى الوقت الذى كان فيه دكتور ( تيلور ) فى ( يونيون ) ودكتور هودج ودكتور دوفيلد فى برنستون دائبين على اظهار أن النشوء اذا صح انتفت النصوص المقدسة كان أستاذ جامعة ( يال ) دائباً مجـــداً فى اظهار آثار الصور (الكرستاسيه) ومن بينها الاسبيرورنس Hesperorins والاختيورنيس Ichtyornis ذوى الاسنان المنشارية ، وبينما كان ( لونهارد ) و ( شاند ) وانصارهما من أهل اللاهوت فى المانيا يقولون بأن الكتب المقدسة تتطلب اعتقاداً ثابتاً فى صحة الخلق الذاتى المستقل ، استكشفت آثار طير الارخيوبترى ) Archeopetryx التى أظهرت بجلاء العلاقة الكائنة بين الزواحف والطيور. وبينما انصرف مسيو (سيغور) Segur وأنصاره فى فرنسا الى حملات جدلية يوجهونها الى شخص يدعي (داروين) كان الاستاذان جودرى وفيلهول مجدين فى استكشاف عدة (حلقات) مفقودة تربط بين الحيوانات المفترسة .

***

وللعلامة المعروف « هنرى فيرفيلد أوزبورن » الامريكى مؤلف كتاب من « الاغريق إلى داروين » ابحاث طريفة فى أصل الفيلة الحالية وكيفية نشوئها وهجرتها التى هاجرتها منذ بدء العصى الميوسينى ، وهو أحد الاقسام التى يقسم بها الزمان الثلاثى Tertiary Period فى علم الجيولوجيا . والعلامة « أوزبورن » فضلا عن أنه

من كبار الزولوجيين - علماء الحيوان - يعتبر من كبار البالنتولوجيين . الباحثين فى الحفريات ، أى الآثار العضوية القديمة التى طمرت واستحجرت فى باطن الأرض

ولقد استكشف هذا العلامة فى سنة ١٩٠٣ فى أقليم الفيوم بمصر بقايا ثلاثة أفراد من سلالة « الموريثيريوم » - Moeritheriun . وكثيراً من بقايا « الفيوميا Phiomia » . وكان كثير العدد ، وقليلا من بقايا « الماستودون الحفرى » Palaeomastodon وكان نادر الوجود ، وهو الذى يرجح أن يكون الأصل الذى نشأعنه المادستوون الامريكى

وكان لاستكشافه هذا أثر حمله على أن يتابع أبحاثه فى البروبوسيديا — Proboscidee أى الخرطوميات . فتتبع آثارها مذ كانت فى مآهلها الاصلية فى افريقية « وابراسيا » Eurasia — إلى مهاجرها الجديدة فى أمريكا . حتى قال بأن نزعة شديدة الى الهجرة والتنقل قد تمكنت من الخرطوميات فى العصور الاولى شبيهة بنزعة التطواف التى ملكت زمام الجماعات البشرية فى العصور القديمة . والى هذه النزعة يعزوا العلامة « أوزبورن » السبب فى نشوء تلك الصور الشتى التى تمتاز بها أسرة الخرطوميات .

ولقد قسم « أوزبورن » الخرطوميات إلى أسرتين تحتويان على ست عشرة سلالة . وذكر أن ستة منها قد قعدت بها الظروف عن أن تصل أمريكا . أما هذه فهى المعروفة بالارقام ١ و ٢ و ٤ و ١١ و ١٢ و ١٦ . ويقول بأن تعيين الوقت الذى هاجرت فيه العشر صور الاخرى ، لا يمكن تحديده تماماً . غير أنه يذكر أنها فى هجرتها إلى امريكا قد سلكت طريق بوغاز بيرنج ، وكان فى زمان هجرتها برزخا وأرضاً يبساً .

ولننتقل إلى تقسيم الخرطومية . فقد قسمها « أوزبورن » إلى أسرتين : الأولى الماستودونيه Mastodontidae والثانية الالفانتية Elephantidae أى الفيلية والاسرة الأولى تحتوى على عشر سلالات : هى —

١ — الموريثيريات - Moeritheres - وقد أخذ اسمها من بحيرة « مواريس » Moeris المعروفة عند اليونان القدماء ، وهى بركة قارون والمعروفة عندنا فى أقليم الفيوم . والموريثيريات فصيلةمن أسرة الماستودون أمفيبيه العادات — أى تأهل البر والبحر - قطنت أنهار إفريقية الشمالية وبحيراتها .

٢ — الدينوثيريات — Dinotheres — وهى سلالة من الخرطوميات كان منها أنواع كبيرة الأحجام مروعة المنظر . عاشت فى اوربا وآسيا فى العصر الميوسينى Miocene وأوائل العصر البليوسينى — Pliocene

٣ ــ الماستودون الحقيقى ــ وقد تنسلت هذه السلالة عن الماستودون المنقرض، الباليوماستودون Palaeomastodon أو الحفرى ، الذى عاش فى العصر الاوليغوسينى Oligocene ـ فى مصر . وقد عثر على بقاياه فى بقاع متفرقة من الرواسب الخشبية ـ الفحم الحجرى ـ فى اوربا . وقد ظهر أولا فى امريكا فى أواخر العصر الميوسينى . وقد تدرج فى الضخامة فكان فى أواخر العصر الجليدى ـ Giacial الماستودون العملاق Gaint Mastodon الذى أهلت به غابات امريكا

٤ ــ الماستودون المتصل الاسنان أو الزيجولوفودنت Zygolophodont ظهر أولا فى العصر الميوسينى فى أوربا . ونشأ منه ماستودون بورسون Borson Mastodon الذى عاش فى الغابات التى كست اوربا وآسيا فى ٠اية العصر البليوسينى وهو قريب الآصرة جدا بالماستودون الحقيقى .

٥ ــ الماستودون الطويل الفك أو اللونغيروسترين Lngirostrines وقد تنسل عن « الفيوميا » Phiomia الطويل الفك الذى عاش فى مصر خلال العصر الاوليغوسينى . ثم تطور تدرجاً حتى صار الحيوان الذى يطلق عليه اسم « التريلوفودون » Tirlophodon الذى عاش فى اوربا . وهاجر مخترقا أوربا وآسيا فى العصر البليوسينى وانتشر فى نبراسكا وكنساس وجنوب داكوتا والكولورادو فى العصر البليوسينى

٦ ــ الترالفودون ـ Tetralphodon ـ وفى الاسم اشارة إلى رؤوس أو بروزات تكونت على حافة الاضراس الأمامية . وعثر عليه أولا فى أوائل العصر البليوسينى فى إبلشيم بالمانيا وفى بيكرمى ببلاد اليونان . وهاجر مخترقا بلاد الهند ودخل امريكا أواخر العصر البليوسينى عندما كان العصر الجليدى على وشك الابتداء

٧ ـ السير يدنتين ـ Serridentines ـ وفى هذا الاسم إشارة إلى التسننات المنشاريات التى تكون فى مؤخر أضراسه من الداخل والخارج . وأفكاكه متوسطة الحجم . وعثر عليه أولا فى رواسب الغابات الأوروبية خلال العصر الميوسيني . وهاجر إلى أقاليم امريكا الجنوبية وتكساس وفلوريدا وعاش هنالك حتى أواخر العصر البليوسينى .

٨ ـ الماستودون المنقارى الفك أو الرينكوروسترين Rhyncrostrines ويمتاز على الصور الاخرى بانحناء انيابه انحناء كبيراً إلى الاسفل بما يشابه الدينوثيريات Dinotheres ولم يعرف أصله فى أوربا . واستكشفت آثاره فى كولورادوا وكاليفورنيا وأمكن العثور عليها فى بلاد المكسيك .

٩ ـ النوتوروسترين Notorostrines ومعناه ماستودون الجنوب ، لأن هذه

الحيوانات وجدت عادة فى كاليفورنيا وجنوب امريكا وكانت قصيرة الافكاك كالما ستودون الحقيقى تماماً .

١٠ ـ الماستودون القصير الفك Brevirostrines ـ أول ما عرف من أنواعه الماستودن المستقيم الانياب فى أوفرنى بفرنسا فى العصر البليوسينى . وهاجرت أنواعه الى الهند ومضت فى الهجرة حتى بلغت غربى نبراسكا فى أواسط العصر البليوسينى . وعاش فى إقليم أمريكا الجنوبية حتى أوائل العصر الجليدى

وأما الاسرة الثانية أى الالفانتية أو الفيلية . فتتكون من ست سلاسلات : وهى

١١ ــ الاستيجودونت Stegodont أكثر قدما من الفيلة . وتتبع الباحثون آثار هذا الحيوان في العصر الميوسينى فى أوروبا إلى غابات الهند . وجزائر الهند الشرقية وبلاد الصين

١٢ ــ اللوكسودونت Loxodonts الفيل الافريقى. وتمتاز هذه السلالة بأضراسها الشبيهة بشكل المعين الهندسى . ومن هذه الفصيلة صور ذات ضخامة وعظم فى الهامة قطنت جنوب أوروبا والهند ثم أخذت تتضاءل تدرجاً وشيئاً فشيئاً حتى كان منها تلك الانواع الصغيرة التى قطنت جزائر البحر الابيض المتوسط

١٣ ــ الارشيد يسكودون ــ Aarchidiskodon ــ أو ماموث الجنوب . عرف أولا فى بلاد الهند. ثم هاجر غرباً إلى جنوب أوروبا . وشرقاً من طريق برزخ بيرنج إلى أمريكا حيث وصل فى اوائل العصر الجليدى وهنالك تنسل عنه المموث الاكبر ــ Imperial Mammoth

١٤ ــ الباريليفوس Parelephos اى مموث المنطقة المعتدلة ويعتبر صورة تكميلية للفيلة الحقيقية . عرف أولا فى أوروبا وتتبع الباحثون آثاره إلى أمريكا حيث ظهر هنالك فى أواسط العصر الجليدى . وتنسل عنه فى تلك الأقاليم المموث الجفرسونى نسبة إلى جفرسون Jefferson

١٥ ــ الالفوس بريميجينوس Elephas primigenuis أو المموث الصوفى أو الوبرى وقد سمى بالاسم الاصطلاحى الذى ذكرناه بعد بلومنباخ البحاثة المعروف وقد استكشفت آثاره أولا فى شمال المانيا وفى انجلترا . وقطع مهاجراً شمال آسيا حيث وصل امريكا فى أواخر العصر الجليدى

١٦ ـ الالفوس Elephas ــ أى الفيلة الحقيقية وقد سميت بهذا الاسم بعد لينيوس العالم المعروف . ويرجح أن تكون قد نشأت فى شمال آسيا . وعرف فى الهند فى أوائل عصر الانسان . وعنه تنسل النوع الذى يقطن الآن فى الهند وبورما وسيلان

# بين الصحف والمجلات

كلمة للنار حول تأسيس المجمع المصرى للثقافة العلمية

تأسس «المجمع المصرى للثقافة العلمية» بجهد فئة من شباب مصر الناهض وتحددت اغراضه تحديداً روعى فيه أن يكون مفهوما على قدر ما يستطيع أطفال السنين الاولى من التعليم الأولى فى المدارس أن يفهموا من اللغة العربية فى بساطة وبيان . ومع كل هذا فقد استبان لنا أن الذين وضعوا دستور المجمع قد اخطأوا التقدير . ذلك لان السيد محمد رشيد رضا ، حامى حمى الاسلام والمسلمين ، لم يستطع أن يفهم معنى الجمل العربية التى حددت بها اغراض المجمع . وهنا تبادر الى أنهم لم يعملوا حساباً لمقدار ماتتسع له عقلية الشيخ رشيد رضا من الفهم. تأكدت من هذا بعد أن أطلعت فى المنار على الكلمة الآتية

« استغربنا تأليف ادارة المقطم والمقتطف لهذا المجمع من الدكاترة الكرام وبعض الملاحدة المفسدين للاديان والآداب، الذين جهر بعضهم بالدعوة الى الالحاد ، ولاسيما الطعن فى الاسلام ، الى افساد الآداب الدينية والمدنية بمايسميه الادب المكشوف . وأما الاطباء فالخدمة التامة الخاصة بهم ، موضوعها حفظ ابدان البشر من الامراض ومعالجة مايعرف لها منها . ويقل فيهم من يجد وقتاً للعناية بالثقافة التى هى موضوع هذا المجمع ان كان مستعداً لها من قبل »

« وكان يجب أن يكون أكثر أعضاء هذا المجمع من كبار المدرسين فى المدارس العالية ومنها الأزهر الشريف ، ومن كبار الكتاب المحررين والعلماء المؤلفين للكتب النافعة ، وان يكون فيها من يمثل الجمعيات الأدبية والاخلاقية ومنها جمعيتا الشبان المسلمين والشبان المسيحيين »

ولا يعقل أن تبحث اللجنة المؤسسة لهذا المجمع عن عقائد من تعرف فيهم الصفات المؤهلة له وتشترط فيها شيئاً . ولكن يجب أن لاتقبل من يكون داعية للالحاد والفوضى الاباحية فى الآداب ، مشهورا بالطعن فى رجال الدين ، ولا يكون معروفا عنه أنه يبغى بالثقافة العلمية نسخ الثقافة الدينية وإقامتها مقامها »

« ولا يكفى فى تأمين المتدينين على أديانهم ان يشترط فى خطب المؤتمر عدم التعرض فيها للسياسة والدين ، فان أشد المتعرضين للدين وقاحة وطعنا يدعى عدم التعرض له »

« ثم ان المقاصد التى ذكرت فى البيان مجملة مبهمة وحاصلة بدون تأليف مجمع خاص لأجلها ، الا مسألة المؤتمر ، وهى مسألة قد سبقت جمعية الرابطة الشرقية الى درسه والسعى لها ، فما معنى افتئات هؤلاء عليها فيه ؟ ولماذا لم يشتركوا معها فى سعيها ، حتى إذا ما اجتمع المؤتمر اقترح عليه تأسيس المجمع اللغوى الأدبى المطلوب ، ان لم تسبق الى تأسيسه الحكومة المصرية ؟ وكذلك الرابطة بين رجال هى من موضوعها، الخ الخ

ولست أدرى أية علاقة تقوم بين « الملاحدة المفسدين » وبين خدمة العلم « باللغة العربية » ؟ فهمنا يا أستاذ ماهى العلاقة ؟ بل فهمنا يا أستاذ ماهى العلاقة بين أغراض المجمع و بين جمعية الرابطة الشرقية ؟ بل وعرفنا ما هى العلاقة بين أغراض المجمع والأزهر الشريف عليه وعليك السلام ، والرحمة والتحية والاكرام ؟

ياسيدى الاستاذ : إن اللورد ليستر كان ملحاداً ، فاذا بليت بخراج فلا تستعمل المطهرات وعلى الأخص صبغة اليود فى العملية نبذاً للالحاد . و باستور كان كافراً لعيناً فاذا انتشرت الحمى التيفودية أو الطاعون بشكل وبائى فخالط المرضى انتقاماً من ميكروبات باستور ، واحتجاجاً على كفره . وأديسون مجدف ، فاوقد بيتك بالمسارج المهببة بدل المصابيح الكهربائية ، ابتعاداً عن تجديفه . وجوتنبرج كان منكراً للألوهية فاكتب مجلتك على الرقوق والخزف بدل طبعها فى مطبعة ، احتجاجاً على انكاره . وكرمبتون مصلح الانوال كان مفسداً للأديان ، فاكتسى باوراق الأشجار وجلود العجول التى توافق مزاجك هرباً من افساده للأديان

ياسيدى الأستاذ : إن عمامتك التى تلبسها فوق رأسك من صنع كفرة ملاحدة. وهم قوم يعيشون فى بلاد يقال إن اسمها كان النمسا ، وغضب الله عليها فهزم أهلها فى حرب وقعت وراء جبل قاف . فالق بالعمامة فى الارض ، وضع بدلها لفافة من و بر الابل المقوى بالزنجفر والشمع البلدى ، بدل أن تسوم نفسك الخسف فى الآخرة بالترويج لبضاعة الكفرة الملاحدة أعداء الله والملة .

ياسيدى الأستاذ : هذا خطاب من نوع ما كتبت ضد المجمع المصرى للثقافة « العلمية » — العلمية ياأستاذ — فاذا استطعت أن تنفذ شيئاً واحداً من هذا ، أو اذا استطعت أن تثبت أن فى هذه المطاليب المتواضعة التى يكسبك تنفيذها مدح الخلائق

فى الدنيا ، والجنة بولدانها المخلدين فى الآخرة ، شيئاً من التطرف أو الالحاد أو إبطال الاديان أو إفساد الآداب ، فأنا الزعيم لك بأن نعلن جميعاً عن الغاء المجمع المصرى للثقافة العلمية — العلمية يا أستاذ — نزولا على ارادتك، وابتغاء مرضاتك.

ياسيدى الأستاذ : إنك لاتتكلم فيما بعد الطبيعة ، ولا فى ماهو فوق العقل ، ولا فى ما هو تحت الشعور ، ولا فى ماهو من منتوج العقل الباطن . انك ياسيدى انما تتكلم فيما هو من « وراء العقل » ، ومادام الأمر كذلك فلك العذر والسلام .

***

(٢) جريدة البلاغ — العدد ٢١٣٨ الصادر فى ١٦ ابريل سنة ١٩٣٠ عن مقال بعنوان حقوق المؤلفين فى مصر بامضاء محمد لطفى جمعه

جاء فى هذا العدد مايلى — :

حقا أقول وا آسفاه على ماصرفه المؤلف فى التأليف من علم ووقت ومال وآمال فكم اقتضى من الجهد حتى وصل إلى هذه الدرجة ، التفكير فالمطالعة فالتأليف تسويداً وتبييضاً ، ثم انه أخذ يؤمل من وراء هذا التعب المضنى أجرا على عمله وفائدة محققة ، ولكنه عند مايغادر منزله ليعرض هذا الكتاب على الطابعين والناشرين يلقى نفسه بين براثن جماعة من الذئاب اتخذت ثياب الحملان وزينت مكاتبها بمختلف الصور البهجة . ولكنهم فى الحقيقة قطاع طريق ومحتالون وهم فى ذلك سواء المصرى والشرقى والاجنبى فبعضهم يشترى الكتاب بحساب الملزمة وبعضهم يعطى مقابل حقوق التأليف عددا من النسخ يقدمها المؤلف هدية لاصدقائه وكلهم يضمرون السرقة . وقد علمت أخيرا أن مؤلفا مصريا ناهاً يتقن تأليف القصص القصيرة ، باع كتابه لناشر مصرى مقابل مائتى نسخة من الكتاب نفسه ، ولست أعلم ماذا يسكت المؤلفين عن رفع دعاواهم إلى القضاء العادل ، فقد سمعت مرة أن ناشرا شهيرا انقرض الآن أعطى مؤلفاً شيكا على بنك ليس له به نقود ، أما المؤلفين الذين ملوا الطلب فتركوا عوضهم على الله وأعرضوا عن الناشرين والطابعين فلا يعلم عددهم إلا خالق السموات والأرض .

« وقد حدثت حوادث مضحكة . فان خطاطاً شهيراً اتفق على طبع بضعة آلاف من كراساته التى تحتوى على مشوق ونماذج من خطه ، مع أحد أصحاب المطابع المشهورين من بنى جنسه فطبع صاحب المطبعة عشرات الألوف من تلك الكراسات ومازال يبيع منها منذ عشرين عاماً إلى الآن ... والطبعة الأولى لاتنفد »

« ومن ذلك أنك تجد كتابك المطبوع فى مطبعة كذا بين جميع الأيدى وتصلك

خطابات ثناء عليه من أنحاء العالم العربى ، مما يدل على انتشار الكتاب ، ثم تذهب لمحاسبة ناشرك العزيز فيقدم لك حساباً بأنه باع ثلاث نسخ فى مدة عام ، وأن العلم كاسد،والأدب ليس له فى هذا البلد سوق ، وأنه هو أشد منك خسارة ، لأنه تكبد نفقات الورق والطبع والاعلان عن الكتاب ، أما أنت فلم تخسر شيئاً .. وفى الوقت نفسه تتراكم ألوف الجنيهات فى خزانة ذلك المجرم ، وكل الناس يعرفون حقيقته ويقفون على مصدر ثروته ولكنهم يلجأون اليه . . . لانه أفضل من سواه . . . وهذا حق لانه يوجد تفاضل بين اللصوص فقد يرضى أحدهم بنشل مالك ويشلح ثيابك والثالث يفعل الجريمتين ويقتلك ... »

هذا ما يكتبه رجل محام مفروض فيه أنه أكثر شعوراً بالمسئولية وأعرف بآداب المناقشة والخطاب . ولو أنه كان غير محام إذن لاحتملنا أن يقول فينا أننا ذئاب وأشد من الذئاب نهماً ، واننا محتالون وقطاع طريق ، إلى آخر تلك الالفاظ التى لاتصدر إلا من رجل لم يعرف الأدب ولم يذق طعم التربية ، ولم يشعر فى حياته بماذا يجب أن تحترم كرامة الأسر والأفراد . ولكن الذى يتكلم محام معروف . لهذا وجب علينا أن نناقشه الحساب ، وأن نرد اليه هذا القول ، لاسباً علنياً كما اقتضت آدابه ، ولكن مناقشة هادئة .

أظن أن الاستاذ يعرف أن من بين هؤلاء الناشرين الذين سبهم جملة من خدمه فى نشر كتب ادعاها لنفسه مع أنها مترجمة سرقة وسطواً على كتاب الغرب . وآخر ما نذكره من هذا القبيل كتاب فلاسفة العرب الذى سطى فيه على المؤلف الألمانى « ده بوور » وغيره من مؤلفى فرنسا واخرج الكتاب مغلطاً حتى فى الاسماء . فاذا نقل عن الافرنج سمى ابن ميمون «ميمونيدس» كما ينطقه الافرنج ، وإن نقل عن العرب سماه بن ميمون والمسمى واحد بالضرورة ، ثم يخلط بعد ذلك فتارة يقول بن سعديا فقط ، وأخرى بن سعدية الفيومى ، وثالثة سعدية ، والعرب يسمونه تخصيصا بن سعديا الفيومى . وقد نشر هذا الكتاب ناشر من الذئاب الذين يرميهم الاستاذ بهذه النعوت بغياً وإثماً .

فاذا ذكر الأستاذ طمع بعض الناشرين فلماذا لايذكر بجانب هذا فضل بعض المؤلفين أو أكثر المؤلفين ، ولماذا لايذكر أن سوق القراءة نائم نوم أهل الكهف لاباعتراف الناشرين وحدهم . بل باعتراف المؤلفين الذين ينشرون كتبهم بأنفسهم والذى أذكره قبل أن أكون ناشراً أنى نشرت كتباً أخرى فاحتككت بالناشرين فما وجدت منهم إلا حسن المعاملة والصدق والامانة التامة . ولقد بعت للأستاذ

الياس انطون الياس كتاباً بمبلغ لم يبع به مؤلف كتاباً من قبل . فكان مثال الشهامة والشرف وصدق الوعد .

أما الكاتب القصصي الذى يعنيه فى كلمته فالاستاذ طاهر لاشين . وأما الناشر فهوصاحب دار العصور ومحرر العصور . وأظن أن الأستاذ الكاتب يعرف الطرفين حق المعرفة.فضربه المثل بهذا بغى وإثم كبير ، بل وتحامل لانعرف له أصلا ولاسبباً هذا إذا عرف أنى لم أساوم الاستاذ لاشين ، وإنى لعلى استعداد لأن أعطى الاستاذ جمعه جميع الكتاب إذا دفع نفقاته الاصلية فقط وليكن ذئباً لصاً قاتلا مع الناشرين . بدل أن يحسدهم وهو على الحياد .

***

(٣) جريدة السياسه — العدد ٢٢٩٣ الصادر فى ١٨ مارس سنة ١٩٣٠ من مقال بعنوان صحف شيوعية مصرية تصدر فى عهد وزارة الوفد — و العدد ٢٢٩٦ الصادر فى ٢١ مارس سنة ١٩٣٠ من مقال بعنوان عودة الدعوة الشيوعية الى الظهور : مصالح العمال والفلاحين لاتخدم بهذا الطريق الخطر .

شرعت جريدة السياسة التى تبرأ كثير من أعضاء الاحرار الدستوريين منها ومن بهتانها ومن سخفها العظيم ، تحمل حملة كبيرة على ماتخيلت من وجود حركة شيوعية فى البلاد فاخذت تهرف فى مقالات افتتاحية بما لايخرج عن هذيان المحمومين أو تخبط الممسوسين.ولانريدأن نبد بالرد على أترهات ذلك الكاتب الذى يسود وجه السياسة بما يسود قبل أن نورد للقارىء شيئا من هذيانه وضروباً من بهتانه لنكون اذا ناقشناه والقراء على بينة من أمره :

« وقد لوحظ فى الاشهر الاخيرة فقط ظهور دعوة جديدة ، تبدو أحياناً باسم الدفاع عن العمال ، ومقاومة الرأسمالية ثم ظهرت الصحيفة الاشتراكية المشار اليها ، وظهرت فى نفس الوقت الى جانبها صحيفة أسبوعية أخرى تحت ستار ملحق أسبوعى لمجلة العصور ، وهذه وتلك تعملان على بث الدعوة الاشتراكية باسم الدفاع عن العمال والفلاحين . ومهما كانت الاعذار والصيغ التى يتوارى وراءها أصحاب هذه الدعوة فلاريب أنها ناحية من الدعوة الشيوعية التى تحرمها قوانين البلاد ، ومهماحسنت نيات أولئك الدعاة والكتاب ، فلاريب أنهم يقومون بدعوة خطرة لا يمكن الاغضاء عنها ، خصوصاً وأن منهم بعض من عرف عنهم الاتصال القوى بالدولية الشيوعية ومن حكم عليهم القضاء من قبل بتهمة بث الشيوعية فى البلاد . هذا الى أن الاقدام

على إصدار مثل هذه الصحف الاشتراكية ، وهى بطبيعة الموضوعات التى تعالجها ليست من الصحف التى يقبل الجمهور على تداولها ، ثم هى مع ذلك تقتضى تضحيات مالية خصوصاً اذا لاحظنا حجم الجريدتين المشار اليهما و إتقان طبعهما مما يدل على استعداد خاص لاصدارهما — نقول أن الاقدام على إصدار مثل هذه الصحف التى لاتروج بين الجمهور ولاتعوض عن نفقاتها ، وحده كاف للتساؤل عن الباعث على هذا النشاط فى إذاعة مثل هذه الدعوة على تحمل هذه التضحيات التى لاطائل تحتها وتخصيصها لهذا الميدان وحده . »

ونحن لانريد أن نعجل بسوء الظن أو الاتهام ولانريد أن نفترض أن لأصحاب هذه الدعوة ومصدرى هذه الصحف علاقة ما بموسكو والدولية الشيوعية ، ولا أن نفترض أن هذه الصحف التى تصدر باستعداد خاص . ويشترك فى تحريرها بعض من لهم صلات قوية بالبلاشفة تغذيها وتمدها جهات أجنبية . لانريد أن نفترض شيئاً من ذلك . فقد يكفل المستقبل القريب كشف الحقائق . ولكنا نريد أن نتوجه اليوم الى وزارة الوفد بشيء من الاستفهام والتساؤل . لأن هذه الدعوة لم تنظم إلا فى عهدها ولأنها هى التى أذنت باصدار الصحيفة الشيوعية المشار اليها .



ثم قال :

« فى الانباء المحلية الاخيرة أن السلطات المختصة قد ضبطت جماعة من الشبان يشتغلون باذاعة الدعوة الشيوعية ، ويجتمعون لأجل هذه الغاية سراً فى منزل أحدهم ، وضبطت كذلك أوراق كثيرة لاتزال رهن البحث والتحقيق . غير أن الذى اقتنعت به السلطات منذ الآن هو أن زعيم هذه الجماعة . وهو فتى أرمنى كان يشتغل بهذا العمل منذ مدة طويلة . وكانت ترقب حركاته وسكناته . وتعتزم نفيه وتطهير البلاد من شره، لولا أنها كانت تفضل الحصول على الادلة الحاسمة حتى لايصبغ تصرفها بالتسرع والعسف . وها قد ضبط الداعى متلبسا بجريمته وضبط شركاؤه وقت اجتماعهم سراً . ونذكر أن هذه ليست بأول مرة خلال الاعوام الأخيرة تقع فيها السلطات على مثل هذه الجمعيات السرية التى تحاول بث الدعوة الشيوعية فى البلاد ، بل لقد استطاعت ادارة الامن العام أن تضبط الى اليوم عدة محاولات من هذا النوع وكانت موفقة فى كل مرة ، تقع على الجناة الحقيقيين ، وتفاجئهم فى دور التحضير ، وتضبط نشراتهم وأوراقهم قبل تمام الأهبة وتتخذ مايجب اتخاذه لصون الامن من عدة واجراءات»

ومنذ أيام قلائل فقط لفتنا نظر الحكومة الى ظهور الدعوة الشيوعية فوق صفحات بعض الجرائد المحلية ، ولفتنا نظرها بالاخص الى صحيفتين بعينهما هما جريدة تسمى « روح العصر » وهي كما تصف نفسها « اشتراكية سياسية » ، وملحق « العصور » الاسبوعى ، وهو الذى يزعم انه ينطق بلسان الفلاح المصرى ، ونبهناها الى أن هاتين الجريدتين والاولى منهما بنوع خاص تخصصان أنهرهما لمباحث اشتراكية وشيوعية محضة ، وتستعملان الاساليب الاشتراكية والشيوعية صراحة ، وتقفان كل نشاطهما على شرح المبادىء الاشتراكية والشيوعية وتاريخ الدعوات الثورية ، وتراجم الدعاة ونضال الطوائف ، وكفاح رأس المال والعمل ، وغير ذلك مما تنفرد به الصحف الشيوعية عادة ، وتساءلنا بوجه خاص عن السر فى صدور هذا النوع من الصحف فى عهد الوزارة الوفدية دون غيرها ، وعما اذا لم تكن الوزارة قد ذكرت ، وهى تصدر الأذن بظهور هذه الصحف . إن الدستور صريح فى حرمانها من الحرية التى كفلها للصحافة . ولم نرد أن نذهب فى ميدان الحدس والظنون حتى نظفر بايضاح رسمى أو شبيه به عن حقيقة هذا الامر . غير أننا لم نظفر الى الآن بمثل هذا الايضاح ، ولم تفصح الجهات المختصة عن حقيقة موقفها إزاء الأذن باصدار صحف تدعو صراحة الى الشيوعية ، ولم تشر الصحف التى تنطق باسم الوزارة الى ذلك بشىء »

« ومن الغريب أن تقع السلطات فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه الصحيفة الشيوعية المذكورة وزميلتها التى تجاريها فى نشاطها ، على محاولة جديدة لبث الدعوة الشيوعية فى البلاد ، وان تضبط نحو عشرة من الدعاة يشتغلون سراً بمهمتهم الخطرة على النحو الذى قدمناه . »

« هذه المصادفه الغريبة تدعونا اليوم الى العود إلى التساؤل الذى تقدمنا به من قبل الى الوزارة والى طلب الايضاح . وتدعونا الى الريب فى أمر هذه الصحف . ومع أنا لانزال نؤثر عدم التسرع فى الفرض والاستنتاج ، وتفسير هذا الاتفاق بما يتبادر الى الذهن لأول وهلة من أن هنالك صلة بين ضبط الدعاة ، وصدور الصحف الشيوعية ، ومن ان هنالك صلة بينهما وبين الجهات التى تعنى فى الخارج ببث الدعوة الشيوعية فى مصر وغيرها من البلاد الشرقية ، فانا نعتقد أن الواجب يقضى على الجهات المختصة بزيادة البحث والتحرى ، ويقضى عليها بالاخص بالتحقق من نيات أولئك الذين اختاروا بث الدعوة الشيوعية ميداناً لنشاطهم وأقلامهم دون غيره ، ثم نرى فوق ذلك أن تراجع السلطة المختصة نفسها فى مسألة الاذن بصدور الصحف الشيوعية ، وأن تراجع نص الدستور فى هذا الشأن اذا كان قد نسيت ان تنتبه اليه »

، هذا من جهة . ومن جهة أخرى فانا لا ندرى ماهى حكمة هذا النشاط الخطر الذى يبديه بعض المفتونين وذوو النيات والمشاريع المريبة فى اتخاذ قضيـــة العمال والفلاحين فى هذه البلاد ستارا لبث بذور الدعوة الشيوعية فى البلاد . ولعل أولئك الدعاة يرون اليوم الافق صالحا لنفث سمومهم مادامت الأزمة المالية تخنق كل الطبقات الفقيرة بوجه خاص،ولهذا كان واجب السلطات أن تضاعف السهر على حركاتهم ونشاطهم . على أن الذى نريد ان يعرفه هؤلاء المحرضون العابثون بسكينة الطوائف أن قضية العمال والفلاحين لاتخدم من طريقهم الخطر ، وانما تخدم من طريق العمل المستنير الهادىء . وهذا ما لم تفعله الحكومات السابقة ، وبالأخص الوزارة المحمدية . ففى عهدها وضعت مشروعات واسعة النطاق لتحسين أحوال العمال والفلاحين ، وبدىء بتنفيذ أول هذه المشروعات بوضع الحجر الأساسى لمساكن العمال . كذلك أعد فى عهد الوزارة المحمدية مشروع المستشفيات القروية ، ومشروع ردم البرك ومشروع امداد القرى بماء الشرب الصحى ، وقطعت فى سبيل تنفيذ هذه المشروعات خطوات واسعة . ويسرنا أن تمضى وزارة الوفد فى تنفيذ ما بدأته الوزارة المحمدية فى هذا السبيل ،

والذى نعرفه أن كاتب هذه السطور محرر من الطبقة الثالثة وفى جريدة السياسة قيل لنا أن اسمه عبدالله عنان ، وانه استاذ ، ومع الأسف أننا لانعرف أية منطقة من مناطق « الاستاذية » التى قسم بها مدلول هذه اللفظة فى مصر تحتل ، وأنه سطى على بعض مؤلفى الغرب فترجم كتبهم وادعاها لنفسه وكتب عليها « النقل محظور بالمرة » فانه ليس بناقل وكأن ليس للسارق على الناقل حق يدعيه . وآخر ماسيظهر من سرقاته كتاب « تاريخ التفتيش » ، وهو كتاب ألف فى أمريكا وأعلن عنه فى مجلاتها وجرائدها وعلى الاخص مجلة « هاربار Harper » تحت عنوان — The Story of the Mquisition — ولقد أعلن الاستاذ عن قرب صدور الكتاب فى جريدة السياسة الاسبوعية على الاخص ، وذكر أيضا ان « النقل محظور بالمرة » ، وأعلن انه محلى بصور هى بالضرورة منقولة عن الأصل تماما . ولا ندرى ماذا يمكن أن يسمى الاستاذ عنان هذا السطو الادبى . أيسميه ترجمة بتصرف ؟ أم نقلا ؟ أم سرقة ؟ أم سطوا ؟ أم اشتراكية فى الأفكار ؟ أم شيوعية فى الغارة على آثار الغير ؟ ولكنه مع الاسف يسميه تأليفا فيدعى ملكية مايسرق . ومع كل

هذا يدعى انه ليس بشيوعى ويخلق من مخيلته حركة شيوعية يحاربها وشيوعيين يدعو الحكومة الى أخذهم بالأادى والاذقان .

هذه هي شخصية الذى يدافع عن النظام فى البلاد . و إذن فهو فى ادعائه هذا غير مخلص . لانى لا أعرف ماهو الفرق بين رجل يجيز الشيوعية فى الآثار الادبية بل ويمارسها فعلا وعلنا من غير ما خشية من ضمير أو تعنيف نفسى أو لوم . بل وفى جرأة لم يسبقه اليها أحد من أمثاله لصوص الأدب والعلم والافكار ، وبين رجل يدعو الى الشيوعية فى الاموال والملكية ؟ ولكن ماذا يهم هذا الكاتب « الارتوازى » الذى يحفر وراء الفكرة على بعد ألف قدم فى كتب غيره ليدعيها لنفسه ـ اذا مات فلاح مصر مادام لديه ثروة من كتب الاورو بيين لاتنفد، ونبعا من معاجم اللغة والعلم لاينضب ينقلها الى العربية نقلا ، فيكفى هذا أن تصبح له ملكا حلالا ؟

انى لا أحاول الدفاع عن غيرى ، بل ادافع عن نفسى . فاصحاب جريدة « روح العصر » كتاب يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم . كما انى لست من مذهبهم ، وأرجح أنهم ليسوا من مذهبى فى شىء ازاء الاصلاح الاجتماعى . بل الذى أريد أن أسأل فيه هذا الكاتب ـ الارتوازى ـ أن يبين من أين اتى لعلمه أن العصور ـــ شهرية أم أسبوعية ـــ تناصر مذهب الشيوعية ؟ أى دليل لديه أن العصور تعمل على احداث قلق اجتماعى أساسه الفلاح ؟ ومن أين يعلم أن لى صلة بشيوعية موسكو؟ وعلى أى برهان بنى حكمه على أن بينى وبين شيوعي الارض صلة ؟ ومن أين أتى له أن شيوعية موسكو تمدنا بالمال ؟ . .. .هذا الهذيان وأمثاله مما يجرى به قلم الكاتب ـــ الارتوازى ـــ هو الذى حفزنا على أن نكتب هذه الكلمات ، لالنناقشه ، ولكن لنقول له أن حزب الفلاح الذى ندعو الى تأسيسه حزب اجتماعى اصلاحى صرف ، بعيد عن فكرة الاشتراكية او الشيوعية ، وان هذه الخيالات المذهبية لانؤمن بها ، ل نؤمن أن أساس الاصلاح هو أن تتهيأ فرص الحياة لكل أفراد الجماعة على التساوى ينهم ، فاذا استطاع أن يفهم هذه النظرية فانا نناقشه ، أما اذا لم يفهمها ، فاى سبيل لنا اليه ؟

***

( ٤ ) جريدة الاهرام — العدد ١٦٢٩٧ — ٢٠ أبريل سنة ١٩٣٠ — من مقال افتتاحى بعنوان : ( سطوة الالحاد على الاديان ) بامضاء — محمد فريد وجدى .

الأستاذ محمد فريد وجدى بك من كبار المشتغلين بالعلم فى هذا العصر ، بل ومن الثقاة فى موضوع اختص به . لهذا رأينا ان لرأيه وزناً يجب أن يناقش وأن يبحث فى هوادة وتريث ، حتى نستطيع أن نخلص من المناقشة بفكرة يصح السكوت عليها والركون اليها . وأول ما يتبادر لذهن الكاتب فى هذا البحث أن يتساءل : اذا كان للالحاد على الأديان سطوة ، أفلم يكن للأديان سطوة على حرية الفكر ؟ على اننا ننقل قطعاً من مقاله لنحدد المناقشة بقدر الامكان قبل المضى فيها . قال حفظه الله .

بدأ الالحاد فى القرن السابع قبل الميلاد على يد الفيلسوف اليونانى طاليس فتلمذ له وقال برأيه رجال يعد منهم ديموكريت ولوسيب وهيرافليد وغيرهم ، وقد كان مرماهم جميعاً التدليل على قيام الوجود بنفسه مستغنياً بقواه الذاتية عن مدبر حكيم فوق عالم المادة . فلم تقم لرأيهم قائمة بسبب شدة تمسك الناس بأديانهم وعدم تسرب الشكوك إلى صدورهم الى ذلك العهد . فانحصر تأثير هذه الفلسفة فى طائفة من ذوى العقول النزاعة الى تخطى دوائر المقررات الرسمية ،

، ثم تتابعت الأجيال ، وتطورت الآراء حتى جاء زمان أصبح الدليل فيه حاجة من حاجات العقول ، فوجد الالحاد مجالا للظهور باعتبار انه رأى علمى له حق المثول بين الآراء المتباينة ، ولم يكد يعطى هذا الحق حتى نزع الى الاعلان عن نفسه بأنه هو الرأى الوحيد الذى يوفى بحاجة العقول ، إذ يستند الى العلوم اليقينية القائمة على المشاهدة والتجربة ، وأما ما عداه فأساسه الهوى والخيال ، وما قام الدليل المحسوس على منافاته للبداهات العلميـــة المقررة . فنشبت بين الالحاد والدين من ذلك الحين ( القرن السادس عشر ) معركة فاصلة لا تزال رحاها دائرة ، استخدم فيها رجال الدين فى أول عهدهم بها ما كان لهم من سلطان على الحكومات والعامة ، فأسرفوا فى البطش بخصومهم لا بقوة الدليل ولكن بقوة الحديد والنار ، فكان ذلك شراً عليهم من جميع العوامل الموجهة اليهم . ثم تقدم الزمان وأفلتت الحكومات من سلطان رجال الدين فاقتصر سلاح الدين على ما كان لديه من قوة الاقناع ،

، فى هذه الأثناء كان العلم الطبيعى يؤتى ثمراته من استكشاف المجهولات ، وتخفيف الويلات ، وترقية الصناعات ، وابتكار الأدوات والآلات ، ويعمل على تحديد الحياة البشرية تجديداً رفعها عن المستوى الذى كانت فيه درجات . فشعر

الناس بفارق جسيم بين ما انتهوا اليه فى عهد الحياة الحرة، وتحت سلطان العلوم المادية، وبين ما كانوا عليه أيام خضوعهم لحفظة العقائد، فانتهز الالحاد فرصة هذا الشعور الجديد وازداد تكالباً على مهاجمة الدين، واستهتر فى مطامعه فرمى الى القضاء عليه القضاء الأخير، وها نحن أولاء فى هـــذا الدور الخطير الذى ذكرته الاهرام وعابت على رجال الأديان التنابذ فيه.

فلو كان خطأ رجال الدين وقف عند هذا الحد لـكان، مع الاعتراف بأنه حوب كبير، من الامور التى وقعت فيها الطوائف قديماً وحديثاً فى الاجتماع والسياسة معاً، ولـكنهم يشتركون فى أمر ليس له ضرب فى تاريخ الطوائف وهو إجماعهم فى كل مكان على إحباط ما جد فى العالم العلمى اليوم من المباحث التى ترمى الى الوقوف على حدود العالم الروحانى على أسلوب العلم الطبيعى نفســـه من المشاهدة والتجربة، واعتبار القائمين بها من علية العلماء، وجلة الفلاسفة والمفكرين فضوليين يشتغلون بما ليس من اختصاصهم من أمور الروح والروحانيات التى يحسبون أنفسهم من محتكريها دون غيرهم»

« فالى أى حد ينتهى عجب القارىء اذا علم أن علوم الطبيعة والكيمياء والجغرافيا والفلك وتاريخ الأديان والتاريخ العـــام والفلسفة الخ لم تدع فى الأديان مذهباً مقرأ، ولا أصلا مدعماً الا أوسعته نقداً على أسلوبها. ونقضته وقوفا مع مقرراتها الرسمية، وان المبحث الوحيد الذى يصلح لأن يصد هـذا التيار المادى الجارف هو ما ثبت بجهاد أولئك الـكملة من وجود عالم أرقى من عالم المادة هو المؤثر فيها، والمصرف لقواها، ثبوتاً حاصلا على جميع الضمانات العلمية لمقاومته لـكل ما ابتكره العلم من أساليب التمحيص ووسائل النقد، قلنا الى أى حد ينتهى عجب القارىء اذا علم أن حفظة العقائد فى كل مكان أجمعوا أمرهم على محاربة هذه الفتوحات العلميـة التى اذا ثبت فى يوم من الايام انها ضلالة، فقدت أخص العقائد فى الأديان كل أساس علمى، وأصبحت جميع مقرراتها ما لا يمكن الدفاع عنه بأية وســـيلة من الوسائل»

ثم قال: —

« اذا كان الدينيون يعلمون من أين أتى إلى مقرراتهم الوهن، وتطرق الى أصولهم الانحلال، لتطلبوا الوسائل لتقوية معاقلهم الدفاعية، واتخذوا من الاسلحة ما يمكنهم من الوقوف أمام هجمات العلم المتوالية، ولـكنهم لا يأبهون لهذا الامر، وإن خطر ببالهم عزوه الى غير أسبابه الطبيعية، وهم يرون ان العلم والفلسفة ينقصان من

أطرافهم كل يوم ، وان الناس يتسللون عنهم زرافات زرافات حتى لم يبق سواهم فى المجال الذى هم فيه . فابنى على ذلك ان الفلسفة المادية التهمت الطبقات المتعلمة . وأصبحت عنصراً من عناصر روح العصر الراهن تتنزل منه العادات والآداب والأخلاق ، بل والأنظمة والقوانين والمثل العليا

الذى يلوح لى ان هذا الالحاد سيبلغ أقصى مداه فى الشرق والغرب معاً ، وسيدفع فى تياره الناس كافة ، الا أفراداً تابعوا العلم فى تطوره ، وتطوحوا معه الى أبعد مغامراته ، وهؤلاء لا يقوون على صد العالم أجمع محفوزاً بعوامل لا تغالب من مقررات الفلسفة المادية صاحبة السلطان اليوم . ولكن متى تم الغلب للالحاد ، وبشمت النفوس من الرتوع فى حمأة الاباحة ، وغرقت المواهب البشرية فى قذر الحياة الحيوانية ، وانطمست معالم المعنى الانسانى فى دياجير الطينيات الباحتة . عادت الفطرة الانسانية التى لم تفتر فى دور من أدوار هذه الفتنة عن الاحتجاج على هذا الاسفاف البهيمى ، فكشفت هذه الكربة ، وحولت قوى الانسان المعنوية الى اعادة النظر فى موقفها ، فوجدت بين يديها ذخراً من العلم الصحيح عن الروح وعالمها ، فأقبلت عليه اقبال التائه تراءت له المعالم الهادية ، وأصابت منه ما يقيمها على الصراط السوى فى حياتيها معاً .

« وعلى ذكر هذا الذخر من العلم نقول ان العلم الغربى دائب منذ نحو خمس وثمانين سنة فى أشخاص رجال من خيرة أبنائه فى كل أمة متمدنة على درس كل ما يتعلق بالنفس وعالمها على الاسلوب العلمى القائم على المشاهدة والتجربة . فمن أجل ما نقدمه للقارىء من الامثلة على مبلغ هذه الجهود جمعية المباحث النفسية التى يتولاها فى لندن أساتذة من كمبردج وأوكسفورد منذ سنة ( ١٨٨٢ ) وقد دونت من تجاربها وتجارب جميع المشتغلين بهذا البحث نحو خمسين مجلداً تحتوى على ثروة علمية لا تقدر ، ولم يسمح الدهر بمثلها فى عهد من عهود البشرية . ولا تزال هذه الجمعية قائمة الى اليوم »

« ومن هذه الأمثلة المجمع العلمى للمباحث النفسية فى باريس الذى يديره جمهرة من نخبة علماء فرنسا و تدوين مباحثه فى مجلته الكبيرة المسماة مجلة المباحث النفسية .

فهاتان الجمعيتان وما أقامته الامم من أمثالها فى كل بلد متمدن تكدس من ثمرات هذه الجهود ذخائر يرجع اليها طلاب الحقيقة فيجدون فيها فوق ما كانوا يؤملون من كنونات الطبيعة الانسانية مؤسساً على أصول العلم نفسه . وممحصاً بأسلوبه الصارم الدقيق »

---

« العصور » ترجىء الرد على مقال الاستاذ فريد وجدى للعدد القادم .



## عصور مايو سنة ١٩٣٠

### ملحق تصويرى فى ٢٤ صفحة مشروحة





---

### اصلاح خطأ

وقع خطأ فى ص ٨ س ١٩ فى كلمة حظ وصحتها حظاً وأيضاً وقع فى ص ٣٠ من هذا العدد فى الشرح خطأ فى اسم مدينة وصحتها خلقيدونية — chalcedon فاقتضى التنويه .